IBRAHIM AL-KONI

روايه
NOVEL

إبراهيم الكوني





الورم



رواية
NOVEL

إبراهيم الكوني

الورم





الوَرَم

الورم / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الأولى ، 2008



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف ®

لوحة الغلاف : **لفنّاني ما قبل التاريخ / منطقة تاسيلي**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-216-5

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

القرآن الكريم

سورة البقرة (الآية30)

* * *

«لا تحبّوا العالم ولا الأشياء التي في العالم. إن أحَبَّ أحدٌ العالم فليست فيه محبّة الربّ».

رسالة يوحنّا الأولى

(15:2)

1 ـ الخُلعة

استيقظ «أساناي» بعد القيلولة فوجد أن الخلعة الجلدية قد تلبّست بدنه. تذكّر أنه غفا جالساً على النطع مرتدياً الجبّة المهيبة وهو الذي حرص أشدّ الحرص دائماً على خلعها كلّما داهمه النعاس أو تأهّب لنومةٍ ليلفّها بعناية في كل مرّة قبل أن يستودعها الجراب: يمسح عنها ذرّات الغبار براحة يده، أو نفخاً بالهواء من فمه، أو حتّى لحساً بلسانه، ولا يتركها لترقد في جوف الجراب إلاّ بعد أن يقوم بلفّها في ثوب آخر منسوج من الخزّ. ولكنه لم يحدث أبداً أن خذلته قواه فصرعه النوم متلبّساً بالخلعة قبل اليوم. فهل هو فعل من أفعال العرق الذي يتدفّق من جسده غزيراً، لجوجاً، لزجاً، كلّما استسلم للنوم؟ إذا كان العرق هو السبب فالماء هو الترياق.

ولكن.. كيف يستطيع أن يستعمل الماء في تحرير الجسد من اللباس دون أن يصيب الجبّة الرهيبة بخلل؟

صاح بالخدم بأعلى صوت دون أن ينسى استنزال بعض اللعنات على رأس سليل الخيانة المدعو في ألسنة القبائل نوماً!

دخل مارد حاسر الرأس مفلفل الشعر، أفطح الشفتين، عظيم المنخرين. انحنى في المدخل قبل أن يتمتم:

ـ مولانا!

فانتهره بحزم:

ـ قلت لك مرات لا تعدّ ولا تُحصى أن لا مولى في هذه الدنيا غير مولاي ومولاك وولي نعمتي ونعمتك: الزعيم!

تمتم المارد:

ـ الغفران يا..

استدرك لحظة قبل أن يضيف كلمة «مولانا» همساً. صاح «أساناي»:

ـ إليّ بالماء! ألا ترى ما فعله العرق الكريه بخلعة مولاي ومولاك؟

هَمَّ العبد بالخروج، ولكن «أساناي» استوقفه:

ـ أم أنّك تستطيع أن تحررني من الخلعة بدون ماء؟ هيّا، أعنّي!

عاد الرجل على عقبيه. وقف فوق رأس سيّده. أمسك الجبّة من جزئها العلوي المتوّج بفروة سخيّة شبيهة بفراء الثعالب برغم أن الكلّ يؤكّد أنها لا تمتّ لسلالة الثعالب بأيّ صلة. شدّ الفروة نحوه بقوّة فأطلق «أساناي» أنيناً موجعاً. صرخ:

ـ ماذا تفعل بي أيها الشقي؟ أنت تريد أن تنزع كتفي!

انحنى المارد على سيّده حتّى كاد أن يلامس أحد منكبيه. انتهره «أساناي»:

ـ ابتعد يا شقي! ألا ترى أني سيغمى عليّ بسبب رائحة إبطيك؟!

تراجع العبد خطوة. دارت مقلتاه الحمراوان في محجريهما كأنهما مقلتا حرباء قبل أن يهمهم:

ـ أخشى أني لن أستطيع أن أُعين سيّدي!

شيّع إليه «أساناي» نظرة دهشة:

ـ ماذا تقول يا سليل النحس؟!

زفر المارد الأنفاس بسخاء قبل أن ينتصب واقفاً. قال:

ـ الجبّة التحمت بالجلدة يا سيّدي!

تفحّص ساعديه بعناية: كانت الخلعة النفيسة قد تشبّثت بالساعد حقّاً. تفقّد الساعد فإذا بالرقع الجلدية تتلبّس الساعد كلّه حتى نهاية المعصم. غابت الرقوق الفاتنة الملفقة من قطع جلدية موشّاة بعروق الذهب في لحمة الجلد لتصير جزءاً منه ولم يبق عارياً من الساعد سوى الكفّين وأصابع الكفّين. تحسّس الجبّة عند الصدر فاكتشف أنها تلتصق بجلدته أيضاً. حاول أن ينتزع الأزرار الذهبية المتدلية من طوق العنق حتّى السرّة فأفلتت منه صرخة ألم.

لقد نبتت الأزرار في جلدة البدن كأن الخلعة المريبة قد غابت عميقاً في لحمه ولم يبق له إلاّ أن يجدّ في طلب السحرة إذا شاء أن يبطل مفعول هذه المكيدة الكريهة.

استدعى الساحر.

أقبل ملفوفاً في السواد من قمّة الرأس حتى أسفل القدم: طويل القامة. صارم السيماء. نحيل البُنية. نحاسيّ البشرة. خاوي المقلتين.

استسلم بين يديه. طاف حوله الرجل طويلاً. تحسّس الرقوق الجلدية الملفقة الغائرة في اللحم. شدّ فروة الفراء التي تلتفّ حول العنق. تفقّد مسيرة الجبّة عبر البدن كلّه. ثم زفر أخيراً وتربّع على النطع في مواجهة صاحب المصاب. في عينيه قرأ «أساناي» نكبته حتّى قبل أن يتكلم الساحر بالمرثية:

- أعترف أنه سحر من جنس فريد!

نظر «أساناي» في عينيه الخاويتين زمناً. غالب يأساً قاهراً قبل أن يسأل:

- ماذا أستطيع أن أفهم من اعترافك هذا؟

لم يتزحزح الخواء في بصر الساحر. لم يتزعزع بدنه أيضاً. قال بلا مبالاة:

- كل ما أردت أن أقول في اعترافي أنّي لم أعرف لسحرٍ كهذا في الواحات مثيلاً!

سكت «أساناي» لحظات. كان يختلس النظرات نحو جليسه ويتلهّى بملمس الرقع الجلدية التي صارت الآن جلدةً في جسده. قال:

ـ هل يُعقل أن يكون الأمر مكيدة من مكائد الخلق؟

اختفى الخواء في مقلتي الساحر ليحلّ فيهما الغموض. قال ببرود:

ـ أستطيع أن أجزم أنها مكيدة، ولكني لا أستطيع أن أجزم عمّا إذا كانت كيداً من خلق!

تأمّله الجليس طويلاً. قال باسماً:

ـ ماذا تعني؟

أجاب الساحر في الحال:

ـ أعني أن المكائد أجناس، والجنس الذي يدبّره الخلق أهون هذه الأجناس!

تألّق الفضول في عين «أساناي». هتف:

ـ ماذا تقول؟

تمهّل الساحر قبل أن يجيب:

ـ مكيدة خالق الخلق أسوأ ألف ألف مرّة من مكيدة خلق الخالق!

سكت «أساناي». تساءل الساحر:

ـ هل نلتَ الخفاء بسوء؟

تطلّع إليه «أساناي» بفضول. ثم نكس ليجيب:

ـ لا أذكر أنّي نلت الخفاء بسوءٍ عامداً، ولكنّ من نصّبته الأقدار على القوم والياً لأمر القوم لا بدّ أن يرتكب خطيئة في حقّ الخفاء شاء أم أبى!

تمتم الساحر:

ـ صدقتَ!

ثم أضاف:

ـ ولكن يحسن بك أن تتذكّر في كلّ الأحوال!

تطلّع إليه «أساناي» باستعطاف من ينتظر قصاصاً. غمغم:

ـ لم أرتكب إثماً!

ولكن الساحر لم يرحمه:

ـ كلّنا نرتكب آثاماً في كل خطوة لا إثماً واحداً!

ابتسم وليّ الأمر بوجع. قال دون أن يرفع بصره عن النطع:

ـ قلت لك أني لا أذكر إثماً اقترفته في حقّ السماء اللّهم إلاّ إذا كان إسعاد نساء الواحة في المخدع إثماً جديراً بقصاص كريه كهذا!

ولكن الساحر لم يستجب للدعابة. عاد الخواء يستولي على مقلتيه. قال باستكباره المعهود:

ـ دعك من معانقة النساء وحدثني عن الحبّ!

أفلتت من فم «أساناي» ضحكة. صاح:

ـ أليست معانقة النساء حبّاً في عرف السحرة؟

أجاب الساحر ببرود:

ـ كلاّ! معانقة النساء في عرف السحرة ليست حبّاً!

تطلّع إليه «أساناي» بدهشة، ثم استدرك:

ـ آه، لقد تذكرت أنكم تسمّون هذا العمل شهوةً!

هتف الساحر:

ـ أحسنت!

ثم أضاف:

ـ هل أحببتَ مرّة يا وليّ الأمر؟!

سكت «أساناي» لحظات قبل أن يتمتم بصوتٍ كالوسوسة:

ـ بلى. أحببت. أحببتُ خلعة الزعيم كما لم أحبّ شيئاً في دنياي!

ثم أطلق ضحكة منكرة. ضحكة جلجلت في البنيان حتّى هرع لها الخدم. صرفهم «أساناي» بإشارة من يده قبل أن يشرع في مسح الدموع من عينيه بسبّابته في حين تكلّم الساحر بقولٍ كأنه نبوءة من نبوآت الكهنة:

ـ من أحبّ شيئاً صار جزءاً منه!

رفع «أساناي» رأسه نحو جليسه المهيب فكرّر الساحر العبارة بعد أن أدخل عليها تعديلاً:

ـ من أَحَبَّ شيئاً أكثر مما ينبغي صار جزءاً من ذلك الشيء شاء أم أبى!

تأمّله «أساناي» طويلاً. كان عجوزاً نحاسيّاً نحيلاً جداً تكاد العظام تفزّ من كل طرف من أطراف بدنه، يغزو البياض عينيه فتستعير المقلة شبهاً بعيون العميان الذين يحسبهم الجلساء يحدّقون في عيونهم ولا يدرون أنهم لا يترصّدون سوى الفراغ.

قال «أساناي»:

ـ لا أريد أن يشمت بي الأعداء!

سدّد له الساحر نظرة بمقلتيه الخاويتين. تمتم كأنه يفشي سرّاً:

ـ إذا كنت لا تريد أن يشمت بك الأعداء فما عليك إلاّ أن تجود بالنّذر!

استفهم «أساناي» همساً كأنه يخشى أن يُسمع:

ـ أجود بالنذر؟

رفّت على شفتي الساحر ابتسامة. همهم:

ـ لا نتحرّر أبداً يا مولانا إذا لم نقدّم ما نريده أكثر مما ينبغي قرباناً للخفاء!

غمغم «أساناي»:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ولكن الساحر أجاب على السؤال بسؤال:

ـ ألا تستطيع أن تتنازل عن السترة؟

أستنكر «أساناي»:

ـ أتنازل عن السترة؟

قال الساحر بسيماء باردة:

ـ أن نتخلّى عمّا امتلكناه طوعاً أهون من أن يُنتزع منّا انتزاعاً!

على شفتي «أساناي» ارتسمت بسمة استخفاف. قال:

ـ هل أسمع ساحراً، أم أسمع عرّافاً؟

ـ قد يستعير الساحر لسان العرّاف، وقد يستعير العرّاف لسان الساحر لأنهما معجونان من طينة صحراوية واحدة يا مولانا!

ـ يقال أن تبادل الألسن هذا دائماً نذير سوء!

سكت الساحر لحظات قبل أن يباغت جليسه بسؤال:

ـ هل أحبّ مولانا السترة أكثر مما ينبغي؟

كتم «أساناي» ضحكة ماكرة. أجاب على السؤال بسؤال أيضاً:

ـ وهل وُجد في هذه الصحراء العظمى مخلوق واحد لم يحبّ السترة حبّاً جمّاً؟

ولكن الساحر ابتسم بغموض قبل أن يعترض:

ـ الخطر ليس في أن نحبّ الهبة، ولكن في أن نحبّ الهبة أكثر من صاحب الهبة!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أن البليّة ليس أن نحبّ السترة، ولكن في أن نحبّ السترة أكثر من حبّنا لصاحب السترة!

غزا وجه «أساناي» شحوب. تكلّم بحماسة من ينفي عن نفسه تهمة:

ـ حبّنا للهبة ما هو إلاّ التعبير عن امتناننا لصاحب الهبة!

ـ الامتنان عن عطيّة شيء، والحبّ شيء آخر يا مولانا!

ـ كيف تريدوننا، يا معشر الحكمة، أن نحبّ أحداً دون أن نعبر له عن حبّنا في هبة وهبها أو نعمة خلعها؟

غزت آي الصرامة سيماء الساحر فازدادت عظام وجنتيه بروزاً وعريّاً. قال بلهجة تحدٍّ:

ـ نعبّر عن حبّنا لصاحب الهبة بزهدنا في الهبة!

أفلتت من فم «أساناي» ضحكة. عَبَّرَ:

ـ هراء!

ابتلع ضحكته أخيراً ثم بَرْبَرَ:

ـ هل تريدني أن أتنازل عن السترة لأحد الأوغاد الذين يملأون

شوارع هذه الواحة بالجعجعة الجوفاء لا لشيء إلاّ لأعبّر لجلالة الزعيم عن امتناني له عن هبة وهبها لي؟!

حاجج الساحر بعناد:

ـ التخلّي عن أعزّ ما امتلكت اليد هو السبيل الوحيد للتعبير عن الحبّ!

حدّق فيه «أساناي» بعينين غاضبتين. حشرج:

ـ هل أحببت الزعيم؟

تمتم الساحر باستحياء:

ـ بلى!

ـ هل تتنازل له عن ابنك تعبيراً عن حبّك؟

سكت الساحر لحظة. أغمض عينيه المستورتين بغلالات الخواء. قال مغمض العينين:

ـ الأبناء ليسوا غنيمة تمتلكها اليد، ولهذا السبب لا أحسب أن من حقّنا أن نضحّي بهم تعبيراً عن حبّ!

زفر «أساناي» بارتياح. عَبَّر عن غلبته بهتاف انتشاء:

ـ هل رأيت؟

لحظتها استوقفه الساحر بإيماءة:

ـ وبرغم هذا فإني لن أبخل حتّى بالأبناء إذا أيقنت أن جلالة الزعيم في حاجة إلى هذا القربان!

ـ مهلاً! مهلاً! ماذا تريد أن تقول بحاجة الزعيم إلى القربان؟

تردّد الساحر قبل أن يوضح:

ـ لقد قلت آنّي لن أبخل إذا أيقنتُ..

ـ ما معنى: «إذا أيقنت» هذه؟

تمتم الساحر بعد مهلة صمت:

ـ اليقين وحده يا مولاي يصلح حجّةً لتبرير التنازل عن الأبناء برغم أن الأبناء هم المخلوقات الوحيدة التي لا تأتي إلى هذه الصحراء لكي نضحّي بها، ولكن لكي تضحّي بنا!

سكت «أساناي». سَرَح لحظات. قال:

ـ لم أحسب يوماً أن الزعيم في حاجة إلى حبّي! ولو كنت على يقين..

سكت «أساناي». زفر الأنفاس بسخاء في حين تكلّم الساحر:

ـ نحن لا يجب أن نحبّ الزعيم لأنه يحبّنا (فهذه مبادلة لا تختلف عن صفقات الأسواق)، ولكنّنا يجب أن نحبّه لأن محبّته واجب على عاتقنا!

غمغم «أساناي» غائباً:

ـ لم أنكره يوماً برغم أني لا أنكر أني لم أعرف كيف أعبّر له عن امتناني!

ـ الامتنان إكبار مقابل عطيّة ولم يكن حبّاً في يومٍ من الأيام!

هيمن سكون قبل أن يفزّ «أساناي» كأنه اكتشف كنزاً:

ـ حسناً! هل تريد الحقّ؟ الحقّ هو أنّي لم أكن على يقين في يومٍ من الأيام أن خلعة الزعيم هذه كانت منذ أول يوم دليلاً على حبٍّ؟

سكت الساحر لحظة. طأطأ أرضاً فتدلّى طرف لثامه حتى لامس النطع. قال:

ـ الخلعة سترة، والسترة ما هي إلاّ جبّة خاوية على مَنْ نالها أن يملأها لا من وهبها!

مال عليه «أساناي» ليهمهم بسؤال:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أن السترة ما هي إلاّ جبّة ملفّقة من جلود، أي أنها في الأصل ليست بخير ولا بشرّ، ولكن ما نفعله بسلطانها هو العبرة!

تمتم «أساناي» وهو يشيح بوجهه جانباً:

ـ لم أفعل بسلطانها إلاّ ما يجب أن يُفعل!

همس الساحر وهو يختلس إلى الجليس نظرة شكّ:

ـ هذا ما تقوله أنت!

رمقه «أساناي» بغضب. صاح:

ـ أفصح!

تردّد الساحر. قال وهو ما يزال يطأطىء أرضاً:

ـ لن أفعل قبل أن أفوز من مولاي بالأمان!

تطلّع إليه «أساناي» بفضول. تساءل:

ـ ومتى كان السحرة في الصحراء يستجدون من ولاة الأمر الأمان؟

ـ مولاي ينسى أننا في واحة ولسنا في الصحراء!

ـ أليست الواحة جزءاً لا يتجزّأ من هذه الصحراء؟

ـ كلا، يا مولانا، كلاّ! الواحة جزء تجزّأ من الصحراء منذ ذلك الزمان البعيد الذي صارت فيه واحةً محاطةً بالأسوار!

تشدّق وليّ الأمر:

ـ الأسوار! الأسوار! لا أعرف لماذا جعلت الألسن من الأسوار لعنة كأنّها جبال من صلد وليست مشيّدة من أطواب التراب!

ـ كون الأسوار جدران أطواب لا يحرّرها من خطيئتها كمعقل!

استنكر وليّ الأمر «أساناي»:

ـ هل قلت خطيئة؟

سكت الساحر لحظات قبل أن يتجاسر على الجواب:

ـ بلى. المعاقل خطيئة يا مولاي!

ـ عجباً!

ـ ولولا هذه الخطيئة لما ضلّلت الهبة مولانا فسارت به المسير الذي يجري على كل لسان!

تململ «أساناي» في جلسته. تطلّع إلى الجليس كأنه يكتشفه لأوّل مرّة. حشرج:

ـ عن أي مسير تتحدّث؟

شيّع إليه الساحر نظرة. كانت أشدّ خواءاً من أيّ وقتٍ مضى. قال:

ـ حسبتك وهبتني الأمان!

ساد سكون. استدرك بعدها «أساناي»:

ـ بلى! لقد وهبتك الأمان شريطة ألاّ تحدّثني بألسنة الدهماء أو الأعداء!

انكمش الساحر حول نفسه كقنفذ. ثم فرّك يديه لأنه لا يعرف ماذا يفعل بهما. أصدر أنيناً قبل أن يقول:

ـ الحقّ أني لا أعرف من أين أبدأ!

لم ينبس «أساناي»، ربّما تنزيهاً لنفسه عن اللّغو، وربّما لهفةً لالتقاط النبوءة من فم الحكيم. قال الساحر:

ـ لا حاجة لي بتذكير مولانا عن السجيّة الخبيثة للهبة لأن سيرتها في الصحراء على كل لسان، وبهذا كان الزهد دائماً أقوى سلاح استخدمه الأوائل في سبيل إبطال مفعول خبثها!

تشبّث «أساناي» بالصمت فأضاف الساحر:

ـ لقد شبّهها أهل العزلة بالهوى الذي إذا أشبعناه ظلّلنا، وإذا قمعناه أجارنا! فماذا فعل مولانا بهذا الكنز يا ترى؟

استمرّ «أساناي» يتطلّع إليه بفضول مريب، كأنّ الساحر انقلب فجأة كائناً خرافياً انبثق من مجاهل الأساطير. أضاف الساحر:

ـ لقد اختلستك السترة فاستخدمتك أسوأ استخدام بدل أن تختلسها فتستخدمها خير استخدام!

انتفض وليّ الأمر، استولى عليه الشحوب وارتجفت وجنته اليمنى بعنف. ويبدو أن الساحر لاحظ الشرّ في السيماء فتلعثم:

ـ هل أطمع في بقيّة من أمان؟

زأر «أساناي»:

ـ لم أمنحك الأمان لتصبّ في أذني ثرثرات الدهماء وحجج الأعداء، فاحترس!

هبَّ واقفاً وهو يرتجّ ويرتعش فهبَّ الساحر أيضاً. وقفا متقابلين في مواجهة مزمومة. تراجع الساحر لينصرف فلاحقه صاحب الخلعة:

ـ أنت واهم إذا كنتَ تظنّ أنّك تستطيع أن تقنعني بصواب وصاياك عن الجود بما امتلكت اليد!

شدّ طرف السترة السفلي بعنف لمداراة الانفعال، ولكنه امتقع وهو يطلق آهة وجع!

2 ـ البشارة

بلغه نبأ مصرع الساحر فتساءل في خلوة المساء عمّا إذا كان قد أخطأ بإخفائه أمر الرسول في حواره مع الشقيّ.

غاب بعيداً مستحضراً، كما في الرؤيا، عراك الساحر وهو يتخبّط بين أيدي الزبانية الذين بعث بهم وراءه محاولاً أن يلتقط الهواء في احتضاره الرهيب. فبماذا سيحاجج يا ترى فيما لو تخلّى ولو مرّة عن خدره الأبدي وحدّث ذلك الرئيّ عن سيرة الرسول الذي أقبل عليه منذ زمن مبعوثاً من جلالة الزعيم؟ لا شكّ أن الداهية سيجد ذريعة أقوى في الترويج لوصاياه عن التخلّي، وعن النذور، وعن حبّ الشيء الذي يجعل من المحبّ جزءاً لا يتجزّأ من الشيء!

لقد فكّر في البداية في أن يقطع لسانه محواً للأثر، ولكنه تذكّر أن الساحر ليس مخلوقاً ككل مخلوقات الواحة، ولكنه ساحر. والساحر لن يعدم حيلة لإفشاء السرّ كبقيّة الخلق، ولهذا السبب أمر الزبانية بملاحقته وكتم أنفاسه قبل أن يفلح في استخدام تلك العضلة القبيحة التي لا يحسن الناس استخدام شيء في دنيا

الصحراء كما يحسنون استخدامها حتّى أنه فكّر مراراً في سبيل يجتثّ به ألسنة أهل الواحة جميعاً بلا استثناء. بلى، بلى. عضلة السوء هذه هي سرّ البلبلة، وسبب كلّ البلايا. أمّا الآن، بعد أن دفن سرّ التماهي بالخلعة مع الساحر ومع العبد المارد قبله، يستطيع أن يتفرّغ لتأمّل الحدث ليعرف يقيناً عمّا إذا كان الحدث ورطة حقّاً، بل وعمّا إذا كانت الورطة تستدعي التدبير للحيلولة دون تحوّلها إلى قارعة، أو نازلة، أو بليّة.

لن ينسى أبداً زيارة الرسول الأولى. كما لن ينسى مدى الحياة زيارة الرسول الأخيرة: في الزيارة الأولى أقبل عليه الرسول في ظلمة السَّحَر، وفي الزيارة الأخيرة نزل عليه ضيفاً مسربلاً بغيهب المغيب. في المرّة الأولى استيقظ من نومة اختنق فيها بكابوسٍ ليجد شبحاً معمّماً بالبياض يتربّع فوق رأسه. كان ينام في العراء خارج الأسوار بعد أن جرّده الناموس حتّى من المتاع وانتزع لصالح الدائنين بيته. وهو مصاب هيّن إذا قورن بمصاب آخر سبقه بزمن. فقد رهن كل ما يملك أيام البحبوحة انتظاراً لإنجاز صفقة سخيّة، ولكن قافلة الأدغال التي انتظرها هلكت على أيدي قطّاع الطرق، فاضطرّ أن يبيع قرينته في مزاد السوق نزولاً عند رغبتها ليفكّ الرهن المشئوم ليستوعب الوصيّة القديمة القائلة بأن من رهن ماله لمعشر التجّار فقد رهن رقبته بيد «وانتهيط» زعيم الإغواء الذي تتحدّث بسيرته الأجيال. حاول بعدها أن يمحو عاره

باستعادة القرينة، ولكن الوغد الذي اشتراها ركب رأسه لأنها راقت له فقرّر أن يتخذها محظيّةً. أعماه الغضب فدبّر أول رذيلة حقيقية في حياته كلّها: دفع مالاً مجزياً لأحد القتلة فدسّ للوغد في طعام الوليمة عقاراً مميتاً. ولكن القصاص الذي نستنزله بأعدائنا بأيدينا يسمّى في عرف الناموس انتقاماً ولم يكن يوماً عدالةً. والانتقام خطيئة أخرى علينا أن ندفع ثمنها عاجلاً أم آجلاً. وقد دفع ثمنها بالفعل بخسارة كل الصفقات التي أعقبت ذلك الفعل القبيح لينتهي به الأمر لا إلى المبيت في طرقات الواحة وحسب، ولكن إلى المبيت في عراء الصحراء خارج حدود الواحة.

في سَحَر ذلك اليوم انتشله رسول الزعيم من يأسه بالبشارة. قال له بصوت واهن كالوشوشة أن الزعيم اختاره من بين الناس جميعاً ليكون خليفته في الواحة. ثم.. صمت. أمّا هو فلم يصدّق. نهض من هجعته وفرّك عينيه كأنه انتظر أن يصحو من الحلم فيتبدّد الشبح كما تتبدّد كل الأشباح. ولكن الرسول لم يزدد في هيئته إلاّ وضوحاً. ازداد بياضاً في عتمة السَّحَر فلم يجد مفرّاً من الاستفهام:

ـ أيعقل أن يختارني الزعيم من دون الناس جميعاً؟

أجاب الرسول بصوت السكينة كأنه يتلو ترنيمةً في صلاة:

ـ حكمة الزعيم سرّ لا يُدرك، ورحمته بلا حدّ!

ـ ولكن أهل الواحة رأوني دوماً أرذل الناس!

ـ الزعيم لم يكن ليكون على الصحراء زعيماً لو رأى مرّة ما يراه الناس.

بحث في العتمة عن مقلة الرسول طمعاً في أن يقرأ فيها نبوءة، ثم تساءل:

ـ ألا يحتمل وجود خطأ؟

أجاب الرسول بيقين:

ـ لا وجود لأي خطأ!

ـ ولكن السيرة..

قاطعه الرسول:

ـ الزعيم على علمٍ بالسيرة، والألم في ناموس الزعيم دائماً شهادة إثبات.

ـ بلى. لا أتباهى بأنّي تألمت، ولكني اقترفت أيضاً خطايا في حقّ الناموس.

ـ من منّا لم يقترف خطايا في حقّ الناموس؟

سكت مستكبراً أن يعترف بجرمه، ولكن الغصّة في الحلق تحوّلت إلى دمع في العين فأضاف بصوت تخنقه العبرة:

ـ لقد زهقتُ روحاً بيد قاتل أجير، وما يعزيني في محنتي أن تلك الروح لم تكن روحاً بريئة!

ـ التوبة أعظم تميمة لغسل أعظم الآثام!

توجّع وتبكّى وتشكّى:

ـ هل أطمع في نيل غفران الزعيم؟

ـ لو لم تنل غفران الزعيم لما جلستُ أمامك مبعوثاً من جلالته لأخلع عليك وصيّته التي تستطيع بموجبها أن تخلفه!

كفكف الدمع. قال:

ـ أخشى أن توقظ العطيّة حسد الخصوم!

هوَّنَ عليه الرسول:

ـ الخصوم سيستسلمون لأنّهم يعلمون أن لا ردّ لمشيئة الزعيم!

ـ ربّما استسلم أولئك الذين يعترفون، ولكن هيهات أن يعترف أولئك الذين ينكرون!

ـ دعك من أولئك الذين ينكرون، فهؤلاء موعودون بعذابٍ أليم.

ـ إنهم لا يصدّقون إلاّ ما يرون، ولا يعترفون إلاّ بما كسبوا!

تبدّى الخلاء بفعل القبس فاختطّ الضياء الوليد سيماءاً في الأفق. قال الرسول:

ـ لا يرون لأنهم لا يريدون أن يروا، لأن الرؤية تستوجب قرباناً يبخلون به.

تأمّله «أساناي» في الضياء الوليد زمناً. تساءل:

ـ هل يريد مولاي أن يقول أن بالوسع رؤية الزعيم حقاً؟

سكت الرسول لحظات. قال بالصوت الذي يتغنّى بترانيم الصلوات:

ـ ألم يره أهل العزلة من قبلكم لأنّهم ولّوا ظهورهم لبدعة التجارة واستجاروا بمفازات الحمادة الغربية فراراً من جنّاتكم؟

انتهشته الوساوس مرّة أخرى فعبّر عن الشكوك وهو ما يزال يغالب العبرات:

ـ لا أعرف، يا مولانا الرسول، كيف سيستمرئون وجودي على رأسهم!

فعاد الرسول يهوّن عليه بأبيات الغناء:

ـ ستكون لك هذه الجبّة حصناً كما كانته يوماً للذين من قبلك.

استخرج من كم جلبابه اللفافة. في اللفافة الجلدية تخفّت الهبة السحريّة التي اشتهتها النفوس عبر الأجيال كما لم تشتهِ شيئاً أبداً. تحسس الرسول اللفافة الجلدية بأصابعه النحيلة كأنه يهدهد رضيعاً، ولكنه لم يستخرج الكنز من قمقم الكنز.

تطلّع «أساناي» إلى اللفافة بلهفة، ولكنه أضاف وهو يتظاهر بمغالبة الدمع:

ـ مولاي يحسن بهم الظنّ لأنه لا يعلم شيئاً عن نذالتهم وفسادهم. إنّي لا أضمن أن ينجو مولاي من شرّهم فيما إذا اكتشفوا تسرّب اللقية من أيديهم.

ابتسم الرسول بسمة تسامح. تغنّى بترتيلة الصلاة:

ـ أعلم عن نذالاتهم ما لا تعلم، وأعرف أنّي عرضة لأن أُقتل على أيديهم كما قُتل رسل كثيرون قبلي، وكما سيقتل على أيديهم رسل كثيرون بعدي!

تمتم «أساناي» وهو ما يزال يحاول أن يتبيّن الخلعة المدسوسة في الجراب:

ـ إذا كانوا قد تجرّأوا فسفحوا دماء الرسل فما الذي يثنيهم عن سفك دماء مخلوقٍ لم يروه خصماً فحسب، ولكنّهم عدّوه دائماً خسيساً؟

تبسّم الرسول. تحسّس الجراب. ترنّم بصوته الرخيم:

ـ إذا أعجزوك فبوسعك أن تحتكم إلى الحديد!

تعجّب «أساناي» يومها:

ـ الحديد؟

ـ بلى، الحديد! ألا يقال أن سلالتكم أوّل من استخرج من بطن الأرض هذا المعدن الخبيث؟

هلّل «أساناي»:

ـ بلى، بلى! يُروى أن أسلافي كانوا أوّل من اكتشف الحديد حقّاً، ولم يكتفوا باكتشاف هذا المعدن ولكنهم كانوا أوّل من ضربه في سلاح ليطعنوا به عدوّاً!

ـ أرأيت؟ مَنْ أخفق في تقويمه الناموس أفلح في تطويعه الحديد؛ هذا شرع قديم قدم الواحات في الصحراء.

تردّد «أساناي» لحظة. تساءل بلهجة شكّ:

ـ ألن يثير الضرب بالحديد حفيظة مولانا الزعيم؟

أجاب الرسول بلا تردّد:

ـ الضرب بيد الحديد قصاص من نصيب الخطاة، والقصاص في عرف الناموس دائماً حياة!

ساد صمت. في الخلاء دبّت الكائنات. فتحت الواحة أسوارها فخرج الرعيان يهشّون القطعان نحو المراعي الجنوبية. تعالى صياح الجِدَاء واختلط بثغاء المعز. تبدّت في الجانب الآخر أسراب الإبل أيضاً. من الغرب لاحت فلول قافلة في طريقها إلى الواحة.

عاد يخاطب جليسه المهيب:

ـ سمعتُ مرّة داهيةً من دهاة الواحة يقول أن خلعة الزعيم هبة لا تُنال إلا بقربان جسيم، وهذا القربان لم يكن يوماً سوى الرذيلة!

استنكر الجليس:

ـ الرذيلة؟!

ـ بلى. قال أن السلطان كان دوماً قَدَر الأراذل لأنهم الأمّة الوحيدة التي لا تتورع عن اقتراف أعظم الآثام!

تمهّل الرسول قبل أن يوضح:

ـ ما الخلعة سوى جبّة، والجبّة إناء خاوٍ، وصاحب الخلعة هو بمثابة المخّ من قشرة البيضة، أو الماء من الإناء، ولو كان الأمر كما ذهب الدعيّ الذي تسمّيه داهيةً لما تلهّف الحكماء للفوز بالخلعة، ولما استمات أكابر الصحراء في انتزاعها بالحُسنَى، فإن لم يفلحوا بالحسنى استخدموا في سبيل نيلها حدّ السيف!

وافقه «أساناي» أخيراً:

ـ صدق سيّدي؛ فالرواية التي تجري على الألسن تقول أن صاحب الاستكبار «آسمنتاس» هو آخر من فاز بها في ربوع هذه الواحة، وقد انتظرها بعده الأصاغر والأكابر، ولكن انتظارهم لها طال أكثر مما ينبغي فما لبثوا أن يئسوا، فهلك جلّهم بداء الحسرة!

ـ أجل، أجل. هلك كثيرون في الواحات الأخرى بالحسرة أيضاً بعد أن خيّبت الأيام آمالهم في نيلها. أجل. الخلعة حلم الزمان لا لأنها نعيم الدنيا وحسب، ولكن في سرّها المستخفي الذي يراه فريق أماناً، ويسمّيه الفريق الآخر سلطاناً!

ـ صدق مولاي. الفوز بالأمان فضيلة الخلعة التي لا تقدّر بثمن.

ولكن الرسول ما لبث أن حذّر بنبرة كالوعيد:

ـ السترة تحصّن الأخيار من الشرور، ولكنها حصن الأشرار من الخير أيضاً، فاحترس!

استفهم يومها عن حقيقة هذه الأحجية، فما كان من الرسول إلاّ أن أضاف:

ـ السترة شرّ الشرور إذا استخدمها المريد لإرواء الظمأ إلى النفع، أو لإشباع النهم إلى الانتقام. ولكنّها ضمان نعيم إذا استعملها المريد في إعلاء شأن القوانين ورَدَع بسلطانها استخفاف المستخفّين.

أعقب ذلك بتمتمةٍ كأنه يستغرق في تلاوة تميمة، ثم نهض وأخذه من يده. ذهب به إلى ساحة السوق فيما كان الباعة والفضوليون والعاطلون عن العمل يتقاطرون على الساحة لقضاء حوائجٍ، أو لترويج سلعةٍ، أو لإشباع العين من نظرٍ، أو لملء الأذن من سمعٍ، أو لإرواء اللسان إلى قولٍ، أو لإلهاء الجسد استبعاداً لشبح الموت.

هناك، في صدر الساحة، تزاحم الخلق بالمناكب ما أن انتشر نبأ وصول رسول الزعيم حاملاً الخلعة الخالدة. علا في البداية هرج، ثمّ تراكض القوم واندفعوا إلى الساحة بعد أن لفظتهم الأزقة والشوارع والبيوت. اعتلى الرسول المناكب ليقرأ على الأسماع وصيّة الزعيم، ثمّ لقّن النذير الوصيّة فطاف بها النذير الأحياء والشوارع والأزقة مشدّداً على واجب أن يبلغ الحاضر فحوى

الوصيّة للغائب على طريقة أهل النداء في وقتٍ ارتفعت فيه أصوات الاحتجاج فجدّفت ألسنة كثيرة بحقّ الزعيم بسبب اختياره الذي نعتته بالحمق والغباء والجور والعماء ونعوت أخرى شنيعة. أمّا هو، «أساناي» ولي أمر الواحة الجديد، المتوّج بمشيئة الزعيم المتمثّلة في الخلعة الخالدة، فكان أوّل ما فعله بوحي من العطية هو نسيان تحذير الرسول من استخدام الهبة لإرواء النّهم إلى الانتقام، لأنه انسلّ من زحام الخلق في السوق وذهب من فوره إلى دار العدوّ القديم ليستردّ من ورثته قرينته السليبة مستعيناً لتحقيق ذلك بالزبانية الذين وضعهم امتلاكه للخلعة تحت إمرته.

استعاد في خلوته العصيبة سيرة تلك الحماقة فأطلق ضحكة مريرة، لأنه تذكّر كيف اكتشف في القرينة السليبة مخلوقة أخرى لا تمتّ بصلة إلى المخلوقة التي عرفها يوماً. انقلبت من امرأة حسناء إلى بقايا امرأة لم تفقد الحُسن وحده، ولكنها فقدت مع حسن الجسد حسن الروح. انقلبت مسخاً من المسوخ روحاً وجسداً معاً فتذكّر وصية الأجيال القائلة أن المرأة هي الشيء الوحيد في دنيا الصحراء الذي لا يجب أن يوهب على سبيل الإعارة، كما لا يجب أن يُستعاد أبداً فيما إذا وُهب، لأنّها تتبدّل وتفسد وتستباح إذا وقعت في أيدي الغرباء كما يتحوّل ويفسد ويستباح أولئك الصغار الذين يفلح الجنّ في اختطافهم من ذويهم ليستبدلوهم بأطفالٍ من سلالتهم.

لا ينسى كيف استولت عليه نوبة غثيان ليلة اختلى بها أوّل مرّة بعد فراقهما الموجع والطويل فلم يجد حرجاً في أن يتقيّأ على مرأى ومسمع من تلك الجنيّة. ولم يكتفِ بهذا الفعل المقرف، ولكنه طردها شرّ طردة، ثم بعث بأحد الزبانية بعد أيام ليكتم أنفاسها في مخدع سليل عدوّه القديم.

ولكن انتقامه ذاك لم يكن العمل الوحيد الذي اقترفه في سلسلة أعماله التي تستهين بالوصيّة وتمتدح بالمقابل خطيئة النسيان.

3 ـ البلاغ

قبل أن يسري به الحلم ليغرق في لذّات الزمان المفقود (تلك اللذّات التي كثيراً ما راق له أن يستسلم لها لأنه رآها دائماً أمْساً بديلاً لخرافة اليوم الحاضر الذي يتشدّق أدعياء الدهاء بمديحه يقيناً منهم بأنه الزمان الوحيد الذي يحقّ لنا أن نتباهى بامتلاكه) زعزعته رجّة كأنّ كابوساً انتزعه من رؤيا اليقظة ليفسد عليه لا رحلته فحسب، وإنّما خلوته أيضاً. فقد تسلّلت ذكرى زيارة الرسول الأخرى فهاجمته كوسواسٍ لئيم فتبلبلت العزلة وانقطع حبل اللذّات. أطلق أنيناً فاجعاً ثم تشبّث بقلبه كأنه يعاند وجعاً مباغتاً. غزا سيماءه الشحوب ونزّ العرق من جبينه. انكفأ على وجهه دون أن تتوقّف يده عن تمسيد صدره. شهق بعمق مرّتين مستبسلاً في اقتناص الهواء. ولكن الأنفاس لم تنتظم، والبدن لم يستعد سكينته الضائعة إلاّ بعد نزاع دام طويلاً. تفقّد الجبة التي تلبّسته لتصير في جسده جلدةً بديلةً للجلد فابتسم بغموض. تفقّدها براحة الكفّ فاستشعر دبيب الكفّ. فركها بأصابعه بعنف منتظراً أن يستشعر ألماً. تناول مدية ووخز بها معصمه حيث غاص كُمْ السترة ليلتحم باللحم ففزّ من فرط الألم. الوخزة خلّفت في المعصم أثراً.

خلّفت أثراً من دم. لم تعد الخلعة تتشبّث بالبدن، لم تعد السترة الجلدية لباساً لصيقاً بالجسد كما تخيّل في البداية، ولكنها صارت جلدةً بديلة لجلدة الجسد. صارت جلدة الجسد.

زفر وهجع. قرّر أن يتحرّر من أحلام يقظته ويغفو. قرّر أن يغفو فربّما جاء الخلاص بالمنام كما جاء القصاص بالمنام. ولكن.. هل هو قصاص حقّاً؟ ربّما لم يكن ما حدث قصاصاً أبداً، بل ربّما كان خلاصاً. لأن الأيام كثيراً ما برهنت بالدليل أن ما نراه قصاصاً لا يلبث أن يتكشّف عن خلاص، كما أن ما نراه خلاصاً كثيراً ما أسفر عن قصاص. فأقدار الخفاء يجب أن تُقرأ مقلوبةً أحياناً مثلها مثل نبوءات الكهنة. ودخول السترة الجلدية في جسده لم يكن ليحدث يقيناً لولا نعي الرسول. لولا الوصيّة المريعة التي جاء بها الرسول من الزعيم القاضية بتجريده من.. من ماذا؟ من الخلعة! كأنّ الخلعة هي خلعة حقّاً! كأنّ الخلعة مجرّد ثوب ككل الأثواب التي يمكن أن تُلبس في وقت الفرح وتخلع في زمن النّوح. كأنّ الخِلْعة هبة من أحد الرعاع وليست هبة من الزعيم العظيم. كأنّ الخِلعة ليست حقّاً أبديّاً مكتسباً. كأنّ الخلعة دمية من دمى الأطفال وليست علامة مستعارة من سماء. علامة تؤهل لامتلاك الرقاب والأرض التي تدبّ عليها الرقاب. كأن الخلعة لم تعد كما كانت دوماً في ناموس القبائل صولجاناً يبيح استعارة دور الزعيم نفسه وربّما الدور الذي يفوق دور الزعيم!

في تلك المرّة لم يقبل عليه الرسول في عتمة الفجر، ولكنه حلّ عليه ضيفاً في ظلمة الغروب. لم يركن إلى جواره كما فعل في يوم التنصيب، ولكنه استأذنه للخروج في نزهة. سار إلى جواره صامتاً. عَبَرا أزقّة الواحة في التواءاتها وتعرّجاتها، في ارتفاعاتها وانخفاضاتها، إلى أن أدّت الطرقات إلى بوابة السور الشمالي. عَنَّ له أن يقفل بضيفه راجعاً، ولكن الرسول أومأ له بنيّته في عبور السور إلى الخارج، إلى رحاب الخلاء.

تردّد لحظات. خاطب الضيف قائلاً:

ـ ولكن نزول الظلمة، يا مولاي، سيكتمل.

سمع الرسول يتمتم:

ـ ظلمة الخلاء أهون ألف مرّة من ظلمة القلب!

لم يستسلم. أضاف محذّراً:

ـ حول أسوار الواحة يحوم اللصوص ما أن تحلّ الظلمات يا مولانا.

ابتسم الرسول باستخفاف. قال دون أن يشيّع رأسه نحو المضيف:

ـ ليس في جعبة الرسول ما يخشى عليه من معشر اللصوص!

أومأ «أساناي» للعسس في ذلك المساء فشرّعوا في وجه الرسول بوابة الخروج. سرحا عبر الخلاء المغمور بالعتمة، ولكن

قبساً ضئيلاً شقّ قوس الأفق في الشرق. فكّر أن الرسول راهن على ميلاد القمر. راهن على ميلاد تلك الأعجوبة الأخرى التي غَفَل عنها هو بسبب البلبلة حيناً وبسبب البلبال أحياناً. لم يغفل عن وجود القمر فحسب، ولكنه شطب من الوجود أعجوبة أعظم ألاَ وهي الشمس. فمتى شاهد فيها الشمس آخر مرّة؟ متى شاهد الشمس وهو يعي أنه يشاهد الشمس؟ متى خرج في نزهة تحت ضوء القمر؟ بل متى خرج في نزهة أصلاً؟ الحقّ أنه عاش طوال الأعوام الأخيرة لا في غيبة وحسب، ولكنه عاش في غيبوبة.

دحرج الرسول حجارةً بنعله في الطريق نحو الرابية العارية التي تشرف على الواحة من جهة الشمال وتفضي في امتداداتها القصوى إلى الجبل. توقّع أن يبدأ الرسول التمهيد للبلاغ بالحديث عن أحوال الصحراء على طريقة الكهنة ليقينه بأن زيارته المباغتة لن تأتي ببشارة. ولهذا لم ينتظر أن يسمع من فم مبعوث الزعيم خيراً. انتهشه الفضول، ولكنه تصبّر وفضّل أن ينتظر. ويبدو أن الرسول قرأ نواياه ككلّ رُسُل الزعيم الذين لا تُخفى عنهم خافية فقرّر أن يخيّب ظنّه بشأن الحديث عن أحوال الصحراء، وفساد طبائع الخلق، وتدهور المناخ في السنوات الأخيرة كما اعتاد العقلاء أن يفعلوا إذا وجدوا حرجاً في الدخول إلى باب مستغلق.

لحظتها سمع صوت الرسول يقول:

ـ آمل أن تكون قد أدركتَ بعد كلّ هذا العمر أن السلطان ليس الغنيمة التي تستطيع أن تحقّق السعادة للإنسان!

حدج الضيف خلسةً، ولكن لم يفلح في تبيّن سيماء الرسول. غمغم:

ـ صدقتَ. السلطان لا يحقّق السعادة حقّاً، ولكن.. ولكن البليّة يا مولانا تكمن في حقيقة أخرى هي عدم وجود البديل!

استفهم الرسول بلهجة استنكار:

ـ البديل؟

ـ بلى، بلى. هل يستطيع مولاي أن يسمّي لي غنيمة واحدة تصلح بديلاً للسلطان؟

التفت نحو الرسول فخيّل له أنه اقتنص، برغم الغيهب، بسمة استهزاء في عين الضيف. تشاءم وغاب في وساوسه، ولكن صوت الرسول ما لبث أن انتشله من غيبته:

ـ ألا يكفي وجود المرأة بالجوار بديلاً؟

لم يخفِ بهجته. لقد جاء دوره ليستخفّ فابتهج. قال:

ـ وهل نستطيع أن نفوز بالمرأة بدون سلطان يا مولانا؟

اختلس إلى الضيف نظرة فأبصر في مقلته، تحت ضياء القمر الوليد، بسمة غامضة، دحرج بنعله الحجارة مرّة أخرى قبل أن يقول:

ـ هناك تربية المال في امتهان التجارة!

أطلق ضحكة هذه المرّة. ضحكة جريئة لا يليق أن تنطلق في حضرة رسول من رسل الزعيم. هتف:

ـ المال دمية أخرى تصلح منافساً خطيراً لدمية السلطان يا مولانا، ولكن المال يفقد هيبته إذا لم يسنده السلطان، أعني إذا أخفق في أن ينقلب سلطاناً. لهذا السبب يراه صاحب السلطان عدوّاً يجب التخلّص منه بأي ثمن إذا شاء أن يهنأ بالاً.

قال الرسول ببرود:

ـ ألهذا السبب أزحتَ من سبيلك تجّار الواحة؟

توقّف. هاجمته بوادر النوبة. بوادر النوبة الجنونيّة التي تستولي عليه كلّما تلقّى إهانةً أو سمع ما حسبه استهانةً. أغمض عينيه وتنفّس بعمق. قال مغمض العينين:

ـ هذا ما يقوله التجّار يا مولانا.

تساءل الرسول وهو يُيمّم شطر الأفق البعيد حيث برز رأس قمر مسربل بالدم كأنه قرص كبير مسبوك من ذهب:

ـ وماذا تقول أنت؟

ـ لا أنكر أنّي استنزلت بحقّ بعضهم القصاص يا مولاي، ولكنه القصاص الذي لم أستنزله بلا جرم!

ولكن الرسول تلا بنداً آخر في صحيفة الاتّهام دون أن يعود من رحلته إلى الأفق المخضّب بلون الدماء:

ـ ماذا تقول بشأن استباحة النساء؟

انتفضت فيه الخلايا، ولكنه غالب الجنون. تلاحقت في صدره الأنفاس. كتم عاصفة انفعال. قال:

ـ لم أستبح امرأة واحدة غصباً!

ـ هل تريد أن تقول أن النساء لم يتمنعن إلاّ من باب الرغبة؟

ـ بل لم يحدث أن تمنعن أيضاً. تلك فضيلة السلطان يا مولاي!

ـ يقال أنّك أنجبتَ ولداً من قرينة وهي في عصمة قرينها!

ـ كان ذلك برضاها وبموافقة قرينها أيضاً يا مولانا.

ـ أيعقل هذا؟

خطا نحو الرسول خطوتين. وقف في مواجهته وهو يرتعد:

ـ هذا يُعقل يا مولاي في حالٍ واحدة: عندما يمتلك الإنسان صولجان السلطان دون أن يكون في حاجة لاستخدام صولجان السلطان. لا ألوم مولاي أن يسمعني اتّهاماً، لأن مولاي لم يجرّب السلطان يوماً، كما لا ألومه بسبب جهله بِحيَل الوشاة!

خطا الرسول إلى الأمام. بدأ يصعد سفح الرابية، فلم يجد

مفرّاً من السير في أثره. جاوره في اللحظة التي قرأ فيها الرسول بنداً جديداً في صحيفة الاتّهام:

- حدثني الآن بما فعلته في «آسايار»!

قهقه عالياً. ابتلع ضحكته فجأة كأنه تذكّر أنه في حضرة رسول الزعيم المخوّل بإجراء مراسم المساءلة. قال:

- توقّعت أن أسمع هذا السؤال من فم مولاي، لأن ما فعلته هو إنقاذ لهذه العشبة النفيسة من الانقراض بعد ما تعرّضت له على أيدي أهل الجشع من فظاعات يوم صار تجّار الشمال يدفعون لهم مقابل وزنها ذهباً!

جلس الرسول فوق شعفة الرابية. قال وهو يتابع الأفق المغمور بفيوض الضوء:

- أكّد الأهالي أنكم قمتم بالاستيلاء على أنفس نبتة من نبوت الصحراء واستأثرتم بعوائدها من أموال.

- لست أنا من استأثر بعوائد العشبة، ولكنه خزائن بيت المال يا مولاي!

حدجه الرسول بنظرة شكّ. تساءل:

- هل أستطيع أن أرى هذه الثروات في خزائن بيت المال؟

بدأ يختنق. استبسل في التقاط الأنفاس لئلاّ يرتكب حماقة. سفح عرقاً سخيّاً قبل أن يواصل مرافعة الدفاع عن النفس:

ـ لا يستطيع مولاي أن يجد هذه الثروات في خزائن بيت المال بالطبع، لأن المال لا يُنال ليتحوّل كنوزاً في خزائن بيت المال، ولكنه يُنال كي يُنفق في ما من شأنه أن يعود على الناس بالنفع!

ـ هل أستطيع أن أعرف وجوه هذا الإنفاق؟

جادل بحماسة:

ـ لا أعتقد أن مولاي وجد الواحة في زيارته هذه كما وجدها يوم نصّبني عليها خليفةً!

ـ ليس المهم أن أجد جمالاً في جدران الواحة أو طرقات الواحة، ولكن الأهم هو أن أجد جمالاً في الناس، وفي حياة الناس!

لحظتها أفلتت منه العبارة:

ـ في هذا أيضاً أستطيع أن أتحدّى!

استنكر الرسول:

ـ تتحدّى؟

ـ بلى. أتحدّى الوشاة لأني أريد أن يرافقني مولاي غداً في جولة نطرق فيها الأبواب لنقف على حقيقة الناس.

هيمن على المكان سكون. سكت الرسول فسكت أيضاً. في السفح حيث تستلقي الواحة تلألأت أضواء وتعالت أصوات. قال الرسول:

ـ تروقني ثقتك في النفس، ولكن عليك أن تعلم أيضاً أن زمام الأمر لم يكن يوماً بيدي!

شلّته الدهشة لأنه لم يصدّق ما سمع. تساءل وهو يغالب عبرة استفزّها الغضب:

ـ ماذا يريد مولاي أن يقول؟

أجاب الرسول وهو يسرح مع الخلاء في امتداده الخالد:

ـ أردت أن أقول أن رسالة الرسول البلاغ!

ـ البلاغ؟

ـ أجل. بلاغ الزعيم هو الذي قضى بخلع الخِلْعة عنك اليوم، كما قضى بخلع الخلعة عليك يوماً!

دام الصمت طويلاً. وجد الشجاعة أخيراً كي يسأل:

ـ وهل الخلعة هبة الزعيم أم عطيّة من عطايا صاحب الدنيا؟

ـ أن تكون الخلعة هبة الزعيم لا يعني أنّها حقّ مكتسب!

تعجّب في وجه الرسول:

ـ لم أسمع مرّة في تاريخ الصحراء أن خلعة من خلع الزعيم خُلعت عن مريد الخلعة بعد أن فاز بها!

ـ أعترف أيضاً بأني لم أذهب إلاّ لخلع الخلعة على مريديها، ولكن أذهب لأوّل مرّة في مهمّة لاسترداد الخلعة!

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ ولكن علينا ألاّ ننسى أن استرجاع الخلعة عمل جائز في عرف الناموس أيضاً.

قال بلهجة امتزجت فيها المرارة بخيبة الأمل بالدهشة:

ـ ظننتُ أن الخلعة شرف أبديّ، ولم يخطر ببالي يوماً أن تكون دمية من دمى الأطفال!

عبّر الرسول عن تعازيه قائلاً:

ـ لا شرف أبديّ أبداً. لا شيء أبديّ أبداً. وما نحن في هذه الصحراء سوى أطفال يتلهّون بالدُّمى!

تسلّط البدر في سماء عارية فاستسلمت الصحراء واستجابت الكائنات بالصمت ابتهاجاً بفيوض الضياء وربّما استغراقاً في ممارسة الصلاة. صمت مريب ينبىء بالعدم، كأنّ لا وجود لخليقة في الصحراء، كأنّ لا وجود للصحراء. كأنه السكون الذي سبق ميلاد الكائنات، بل سبق ميلاد الصحراء.

استشعر في ذلك المساء لذّةً غامضةً. لذّةً لم يعرفها منذ الطفولة لأنها كانت الزمن الوحيد الذي عرف فيه الاستسلام للسكون والرحيل إلى السّماء المرصّعة بحشود النجوم. هذا الرحيل الذي أدرك فيما بعد بأنه هو ما يلقّبه العقلاء وأصحاب الكهانة باسم التأمّل. هذه اللفظة الصغيرة التي لا ينطقونها إلاّ بمراسم الإجلال الشديد، ويعلّقون عليها آمالاً خفيّة دائماً. قال بصوتٍ ما زالت تخنقه العبّرة:

ـ ما زلت أقول أن استنطاق الأبرياء هو شهادة خلاصي!

ولكنه سمع صوت الرسول يقول:

ـ شهادات من تسمّيهم أبرياء هو ما لا يجب أن تعوّل عليه!

استنكر بخشونة:

ـ ولماذا لا أعوّل على من أحسنتُ إليهم منذ اليوم الأوّل الذي وضعَت فيه الخلعة على منكبي هذا؟

في مقلة الرسول اقتنص بسمة استخفاف فأضاف:

ـ إذا كان جلالة الزعيم يرى أنّي أصبتُ الأكابر بمظالم فلم أفعل إلاّ لكي أنصف الأصاغر. وإذا كنتُ قد سمحت لنفسي باستنزال صنوف القصاص بأصحاب الجور فلم أكن لأفعل لولا نيّتي في تحقيق الأمان لصحبان الخوف. وإذا كنت قد انتزعتُ أموالاً من أغنياء فما ذلك إلاّ لكي أنقذ أصحاب الفاقة من جوع. ألم يخوّلني الزعيم بخلعته هذه أن أكون له في هذه الأرباع خليفةً؟

قال الرسول بصوت تلك السكينة التي يسمّيها البعض الثقة بالنفس، ويسمّيها البعض الآخر بالحكمة، ويسمّيها هو باللهجة التي تبيّت الاستفزاز:

ـ يدهشني حسن ظنّك بالدهماء!

ترافع بحماس:

ـ في زحام الدهماء يتخفّى بسطاء، في زحام الدهماء يحيا

أبرياء، في زحام الدهماء لا يعدم وجود الرسل الذين يتنكّرون في ألبسة هؤلاء الدهماء!

ـ هل تكبر الدهماء خوفاً من رسلٍ تراهم جواسيساً لجلالة الزعيم، أم تكبر هؤلاء طلباً لمرضاة ناموس الزعيم؟

ارتبك لحظات. ولكنه ما لبث أن استعاد شجاعته ما أن تذكّر أنه يترافع في مساءلة قد تقرّر له النجاة وقد تقرّر له الموت:

ـ العِبْرة بالنتيجة يا مولانا، لا بالنوايا!

ـ ها أنت تخطىء!

ـ أخطىء؟

ـ الزعيم يأخذنا بالنوايا لذلك يغفر لنا خطايا ارتكبناها عن حسن النيّة، ولكنه لا يتسامح معنا في شأن النوايا التي تُشتمّ منها رائحة الصفقة حتّى لو تبدّت في النهاية عملاً حسناً.

قال بلهجة زعزعها اليأس:

ـ الصفقة هو ما لم يخطر لي على بال يا مولاي، صدّقني!

ولكن الرسول لم يرحم:

ـ إرضاء الدهماء خوفاً من رسل تراهم جواسيساً للزعيم ما هو إلاّ صفقة لاسترضاء الزعيم ظنّاً منك أن الزعيم يمكن أن يُسترضى برشوة!

ـ رشوة؟!

ـ ماذا يمكن أن نسمّي إرضاء الخلق خوفاً من غضبة الزعيم أو طمعاً في مرضاته غير الغشّ أو الرشوة؟!

كان يتطلّع إلى الرسول في ضوء البدر وهو يرتعد من فرط الانفعال. قال:

ـ ظننت أن مرضاة الزعيم دَيْن في رقابنا جميعاً. هذا على الأقل ما ورثناه عن أسلافنا في الوصايا.

ـ أخطأت! يجب أن تطلب مرضاة الناموس الذي سنّه الزعيم لا أن تطلب مرضاة الزعيم!

تساءل بروح الطفولة:

ـ وهل يوجد فرق بين الزعيم وبين الناموس الذي سنّه الزعيم؟

ـ يوجد فرق بالطبع، لأنّنا كثيراً ما نضحّي بالناموس الذي سنّته مشيئة الزعيم في سبيل محبّة مزعومة للزعيم، وننسى أن لا وجود للزعيم خارج الناموس الذي سنّه الزعيم.

ترنّح ليلتها قبل أن يعبّر عن شكوكٍ لم يعبّر عنها في حياته يوماً:

ـ إذا كان الأمر كما تقول فأخشى أننا أخطأنا في قراءة الرسالة!

ولكن الرسول تجاهل الاعتراف ليضيف إيضاحاً آخر:

ـ القيام بالأفعال لاسترضاء الزعيم صفقة مهينة يا صاحب

الأمر، ولكن حبّ الناموس في تسيير شئون الدنيا يجب أن يكون هو الغاية. هل تعرف لماذا؟

لم ينتظر منه جواباً عندما أضاف:

ـ لأن حبّ الناموس يقين، وكلّ ما سواه باطل. ولهذا السبب هو دَيْن في رقابنا جميعاً.

رحل بعيداً. تساءل غائباً:

ـ ما معنى أن يكون الناموس يقيناً يا مولانا الرسول؟

أجاب الرسول وهو ما يزال يتطلّع إلى السماء التي تومىء فيها النجوم كأنها تلقي له بنبوءة في كل إيماءة:

ـ أردت أن أقول أن الخلاص من الزّلل في اليقين المسمّى في لغة الكهنة إيماناً. وإكبار الزعيم ليس في مرضاة الزعيم، ولكن في إكبار ناموسه الذي أطلقت عليه الأجيال اسم: الحقيقة!

ثم التفت إليه لأوّل مرّة منذ انتصبا على الرابية ليقول:

ـ يحزنني أن أنبئك بأن إلحاحك في استجواب أهل الواحة يجعلك غريقاً يطلب النجاة بقشّة!

رجّته العبارة فاستشعر وَهَناً كاد يصرعه أرضاً، ولكنه استبسل:

ـ هل يعني مولاي أنه قام بواجب الاستجواب قبل أن يقبل عليّ؟

أجاب الرسول على السؤال بسؤال:

- وهل ينطق رسل الزعيم بحكمٍ قبل أن تسبقه فروض الاستقصاء؟

كاد ينهار أرضاً، وكي يتدارك الأمر أنطلق يتمشّى على حجارة الرابية ذهاباً وإياباً. سأل:

- هل يعني هذا أن حكم مولانا قد صدر وانقضى الأمر؟

شدّ الرسول من أزره:

- النطق بالحكم لا يعني نفاذ الحكم!

استفهم بإشارة فأوضح الرسول:

- الطعن حقّ مشروع في شريعة الناموس، ولولا هذا الحقّ لما وجدتني أستمع إليك الآن!

تقدّم من الرسول. تعلّق بطرف جلبابه. حشرج كالمحتضر:

- ولكن ما جدوى حقّ الطعن إذا كانت مرافعتي في الدفاع عن نفسي لم تجد من مولاي حتى الآن الأذن الصاغية؟!

قال الرسول بصوت السكينة:

- إذا كنتُ لا أملك الحقّ في أن أعطي آمالاً فأستعير سلطاناً لا أملكه، فهذا لا يعني أن حججك في الدفاع عن نفسك لم تجد الآذن الصاغية!

تمتم:

ـ حقّاً؟

ـ أستطيع أن أشفع ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن الحكم الأخير ليس بيدي لأني لست سوى الرسول الذي يحمل البلاغ. أمّا الأهالي فهم الطرف الأضعف في شهادة براءتك كما راق لك أن تسمّيها، لأنّك نسيت سجيّة الناس الذين لا يهفون إلى شيء كما يهفون إلى نكران الإحسان. كما نسيتَ حنين هؤلاء إلى التغيير حتّى لو جاءهم هذا التغيير بالبلايا بدل العطايا.

دبّ فوق شعفة الرابية أمام الرسول. قال بلهفة:

ـ عن خسّة أهل الواحة أستطيع أن أروي لمولاي الأساطير، ولكن.. ولكن هل ثمّة بقيّة من أمل في رأي مولانا حقّاً؟

أجاب الرسول بعد صمت:

ـ ليس من حقّي أن أنطق بوعدٍ، لأن رسالة الرسول رفع الأمر لوليّ الأمر!

4 ـ القرينان

ـ السافل عَبْدٌ عندما يفقد، طاغيةٌ عندما ينال!

وصيّة جرت على لسان رجل قصير القامة، حاسر الرأس لا مِنْ القناع وحسب، ولكن مِنْ الشعر أيضاً. يجاور رجلاً نحيلاً، مقنّعاً، طويلاً، نحاسيّ البشرة مثله مثل جليسه الأقرع، يستعينان بالاستناد إلى جدارٍ ناصع يشرف على ساحة سوق الأنعام، لأنهما لا يقتعدان الأرض في جلستهما، ولكنهما يقعيان على رجليهما كأنّهما يتوقّعان هجمةً ويتأهّبان للفرار.

كانا يواجهان قرص الشمس الوليد في مراسم الإكبار التي اعتادا ممارستها منذ الطفولة لأنهما ورثا هذه الصلاة عن أسلافهم الأوائل فكفّت عن كونها واجباً منذ زمن بعيد لتنقلب بالإدمان متعةً، بل سعادةً، لا غنى عنها. كانا يلتقيان كل يوم في غياهب الفجر فيذهبا في جولة في العراء ما أن تفتح الواحة بواباتها. يسرحان في الخلاء صامتين فيبدوان في ظلمات السَّحَر كشبحين من أشباح الخفاء (تلك الأشباح التي يروق لها أن تتسكّع في تلك الفلوات كلّما تنزّل في الصحراء الظلام) ولكنهما لا ينبسان بكلمة

قبل أن ينبجس الأفق عن القبس البكر فيعودان أدراجهما ليستقبلا الشروق عند الجدار الناصع المطلّ على ساحة سوق الأنعام. هناك يتجاوران في جلستهما الغريبة ليتحاورا وهما يرنوان إلى قرص الشمس وهو يخترق سماءاً عاريةً خالدةً في عريّها.

أهل الواحة يخاطبون صاحب القامة القصيرة باسم «أساروف» ويلقبونه بـ«الكاهن». أمّا صاحب القامة الطويلة فيخاطبونه باسم «إيدبنان» ويلقّبونه بـ«المهاجر».

واللقب الأخير، كما يقال، لا صلة حقيقية له بالهجرة، ولكنه حميم الصلة بالعزلة. وقد تردّد على ألسنة الدهماء أوّل ما تردّد لجهل هذه الفئة بالفرق بين التنقّل في الصحاري طلباً للرزق، وبين اللجوء إلى الصحاري للانقطاع عن الخلق. فما أن يخرج «إيدبنان» من أسوار الواحة في طريقه إلى جبال «هانكاكا» (كسبيل وحيد لبلوغ ربوع الحمادة الغربية المعلّقة في السماء) حتّى يطلق الكبار خلفه زمر الصغار الذين يعيّرونه (نيابةً عن ذويهم) بالبلاهة، ويتنبّأون له بخيبة المسعى في سفره الجديد، لأنه لم يحدث يوماً في رحلاته الأبدية أن عاد ببضاعةٍ، أو بغنيمةٍ، ولا حتّى بطريدةٍ، ليقينهم (أو ليقين أهلهم بالأصح) بأن الإنسان لا يخرج ليعاني أخطار الأسفار دون أن تكون الغاية من الرحلة عقد صفقة تجارية، أو استجلاب سلعةً نادرة، أو الاشتراك في غزوة لنهب الأسلاب، أو اقتناص شاة ودّان أو بهمة غزال في أسوأ الأحوال. ولم يكن

هؤلاء الأشقياء يكتفون برجمه بضروب الهتاف المهين في خروجه، ولكنهم كانوا يطاردونه بهذه اللعنات في عودته أيضاً. ولكن صاحب الهجرة هذا، كما يلقبونه، لم يعر هذا العدوان اهتمامه يوماً. كان يكتفي برسم بسمة غامضة على شفتيه (ربما تعبيراً عن استهانة وربّما علامة إشفاق) ويعانق بمقلتيه شعاف «هانكاكا» التي تتبدّى في البعد مغلولةً بلفافات زرقة خفيفةٍ خفيّةٍ استعداداً لتهيئة البدن لقطع مسافات تبدو متاهةً بلا نهاية.

في تلك الآونة التي تخلو فيها الواحة من صاحب العزلة يحيا الكاهن حياة طفلٍ تيَتَّم من الأهل بل ومن الأقرباء أيضاً، ولكنّه لا يتخلّى عن صلاة الخروج المبكّر إلى الخلاء أبداً ليعود من تلك الجولة ليشاهد الشروق الجليل مستنداً إلى الجدار المشرف على ساحة سوق الأنعام وحيداً. ويقال أن سرّ تخلّف الكاهن عن مرافقة القرين لا علاقة له بالخوف من أخطار الأسفار (كما يشيع الخبثاء) كالسعالي أو الجنّ، أو الأفاعي، أو الوحوش، أو الأعادي، أو العطش، أو الضياع، ولكن بسبب عطبٍ أصيب به في عجيزته منذ الطفولة، أقعده عن السعي لمسافاتٍ طويلة. وكان العقلاء يبتسمون باستخفاف كلّما لاح «إيدبنان» في الأفق لأنهم يعلمون أن أوّل من يهرع لملاقاته سوف يكون الكاهن «أساروف»، برغم أنهم لم يتساءلوا يوماً لماذا لا يخرج الكاهن «أساروف» لتشييع رفيقه عند خروجه كما يهرع لاستقباله عند وصوله.

نطق الكاهن في صبيحة ذلك اليوم بالوصيّة عند الجدار فهيمن صمت طويل قبل أن يلتقطها «إيدبنان» ليردّدها حرفيّاً:

ـ السافل عبد عندما يفقد، طاغية عندما ينال!

أدرك الكاهن أن القرين كان يتأمّل الوصيّة طوال الوقت على طريقة أهل العزلة، ولم يردّدها إلاّ بعد أن فازت منه بالتزكية.

ابتهج مثل طفل بهذه الشهادة في حين سمع الجليس يقول:

ـ لا أعرف لماذا يستهجن القوم أن يُصاب «أساناي» بالمسّ وهم الذين لا يجهلون سيرة هذا الشقيّ!

اقتحم بعض الرعاة ساحة السوق يهشّون إبلاً، في أثرهم دبّ آخرون يهشّون قطيعاً من المعز، فانتهكوا حَرَم السكون بهرجهم.

قال الكاهن:

ـ كان العقلاء يقولون أن خلعة الزعيم لم تكن على صدره وساماً، ولكنها كانت امتحاناً، ولم يدركوا إلاّ فيما بعد أن المنحة لم تكن امتحاناً لـ«أساناي»، ولكنّها كانت امتحاناً لهم هم!

صحّح «إيدبنان»:

ـ كانت امتحاناً لنا جميعاً!

هتف «أساروف»:

ـ ولكن ها هي الأيام تكشف عن حكمة الزعيم كما كشفتها دوماً.

عقّب «إيدبنان»:

ـ اليوم فحسب نستطيع أن نؤمن بأن الهبة تخفي دائماً قصاصاً في حين تبدو للبلهاء خلاصاً.

علّق الكاهن بعد صمت شوّشته هرجة السوق:

ـ هذا يصْدق على كل الهبات، لا على هبة الزعيم وحدها.

ـ توجّب علينا أن نؤمن بما تناقلته الأجيال عن حقيقة الخلعة الملفّقة من جلود الخلق لا من جلود الحيوانات المنقرضة كما يدّعي الزبانية.

التفت نحوه الكاهن: تأمّله بفضول كأنّه أحد الأغراب قبل أن يتساءل:

ـ هل تصدّق أن جلدة الخلعة يمكن أن تلتحم بجلدة الطاغية التحاماً كما تروّج الشائعات؟

أجاب مريد العزلة بلهجة حياد:

ـ ولماذا لا تلتحم الجلدة بالجلدة إذا كان «أساناي» قد استمرأ سلطان العطيّة فظنّها حقّاً أبدياً مكتسباً؟ ألا يقال أننا نصير جزءاً من كل شيء أحببناه أكثر مما ينبغي؟

ـ يقال أن هذه العبارة كانت السبب في مصرع الساحر المسكين!

ـ الساحر كان سيهلك في كل الأحوال.

حدجه الكاهن فسطع ضياء شمس الضّحى على صلعته العارية. قال:

ـ لماذا على الساحر أن يهلك في كل الأحوال؟

أجاب المريد وهو يطارد ببصره فلول سرابٍ بدأت تتولّد لتعتلي قمم جبل الشمال:

ـ لأن السحرة هم القبيلة التي لا تموت بأجلها، لأنهم إن لم يموتوا بيد غيرهم ماتوا بسحرهم!

أنصت أساروف لهرج السوق الذي بدأ يتزاحم. قال:

ـ ولكن علينا أن نعترف بأن ميتة الغدر هو ما لا يستحقّه الإنسان حتّى لو كان ساحراً، بل حتى لو كان عدوّاً.

ـ يقال أن الوغد منحه الأمان.

ـ لم أحسب الساحر غبيّاً إلى حدّ يصدّق فيه أماناً نطق به «أساناي».

ـ ذلك خطأ الساحر الذي يقال أنه الوحيد الذي لا يخطىء مرّتين أبداً، لأن خطأه الأوّل مميت دائماً!

أنصت «أساروف» لجعجعة التجّار في السوق. قال:

ـ من سخرية الخفاء أن يميت الطاغية عبداً ثم ساحراً لئلاّ يذاع سرّه، ثم تفشي محظيّته سرّه!

علّق إيدبنان:

ـ لا نهلك إلاّ بما نحبّ!

أضاف أساروف:

ـ أو بما نملك!

هجم سكون. ولكن البلبلة في الساحة تضاعفت. قال إيدبنان:

ـ لا نهلك بما نملك إن لم نحبّ ما نملك حبّاً جمّاً.

ـ الحبّ الجمّ دائماً خطر الأخطار.

ولكن إيدبنان فرّ إلى سيرة المحظية:

ـ قيل أنه لم يهبها النجاة إلاّ بسبب العشق، ولكن لم يفته أن ينزع لسانها برغم ذلك.

هأهأ أساروف بضحكة مكتومة كأنها حشرجة ثم مسّد صلعته المهيبة براحة يده قبل أن يقول:

ـ ولكن الجنيّة خذلته لأنها عرفت كيف تذيع سرّه بالأبجدية القديمة التي اختطتها على رقعة الجلد بمسعر النّار. هأ ـ هأ ـ هأ..

علّق ايدبنان بلا مبالاة:

ـ معرفة الداهية بأبجدية اللغة القديمة هو ما لم يخطر للوغد على بال!

حدّق أساروف في وجه الرفيق فجأة. سأل باهتمام:

ـ ماذا تظن «أساناي» فاعل بنفسه بعد الآن؟

تفكّر إيدبنان لحظة قبل أن يجيب:

ـ لا مفرّ له غير أن يتخلّى عن حبّ الخلعة!

ـ هل تظنّه ينجو إذا تخلّى عن حبّها؟

أجاب مريد العزلة ببرود:

ـ لم نرث في وصايا الأجيال سيرة عن مريدٍ أحبّ الخلعة ثم أفلح في التخلّي عنها بعد أن نالها!

5 ـ الواحة

آدري هو اسم الواحة، ولكن تجّار القوافل يضيفون صفة للاسم هي «الشمال» تمييزاً للواحة عن واحة أخرى تحمل الاسم نفسه مع نعت مختلف هو «الجنوب». والأخيرة تقع في صحاري «تارجا» التي خلعها الغرباء وأهل الشمال الدخلاء اسماً لأهل الصحراء نسبةً إلى تلك المنطقة الرملية الغنية بينابيع المياه.

و«آدري الشمال» هذه تقع في منخفض أرضيّ هائل المساحة في أطراف صحراء «تينغرت» الشمالية. وقد أطلقت عليها الأجيال اسم «آدري» نسبةً إلى الانخفاض، لأن كلمة «آدري» في لغة أهل الصحراء إنما تعني «الشّقّ»، أو «الأخدود في صدر الأرض المستوية». ولم تكن لتتحوّل واحةً لولا امتياز الانخفاض هذا الذي استولت بفضله على نصيب المياه الأوفر في كل صحراء الشمال، لأن مياه الأمطار التي تتنزّل على المرتفعات المجاورة إنما تسري إلى حضيضها بسبب تطبّع الماء بروح العدالة فيجري بطبيعته إلى الأسافل ما ظلّ في الأرض ركن أسافلٍ كما يقول الأوائل، في حين يهاجر أهل الصحاري العليا مسافات قد تستغرق أشهراً للفوز بالماء من آبار منحوتةٍ في الصلد تبلغ في عمقها

مسافات خرافية تروي السِّيَر الأولى أن الفضل في حفرها يعود إلى سقوط الأجرام السماوية في أزمنة لا يذكرها أحد. وبرغم اللقية التي يراها أهل الصحراء في العثور على بئرٍ من هذه الآبار إلاّ أن الاهتداء إلى مثل هذه الكنوز لا يعدّ انتصاراً على الهلاك دائماً، ذلك أن عمق الآبار الأسطوري يستدعي التزوّد بكتل حبالٍ تبلغ في عبئها أحمالاً كاملة. وكثيراً ما هلكت أمم كاملة فوق فوهات مثل هذه الآبار عطشاً بسبب غياب هذا الكمّ من الحبال.

إلى الشرق من الواحة، كما من جهة الجنوب، تستلقي صحاري منبسطة بلا نهاية، في حين تنتهي الخلوات الشمالية إلى الواحات التي تطلّ من علٍّ على البحور. أمّا من ناحية الغرب فتقع واحة ذائعة الصيت كانت منافساً خالداً لواحة آدري، هي واحة «قدموس» التي يُرْوَى أن أوّل إنسان نزل الصحراء هو من وضع لها حجر الأساس تيمّناً باسمه. ولكن هذا الاسم الجليل ما لبث أن تحوّل في رطانات الأمم الصحراوية إلى «غدموس» في زمنٍ مّا، ثم إلى «غدامس» في مراحل تاريخية تالية. ولم يكن لواحة «قدموس» أن تزدهر لتجتذب إلى ساحات أسواقها تجارة القوافل لولا سخاء المياه التي تتزوّد بها من المرتفعات التي تطوّق «آدري الشمال». بل لم تكن «قدموس» هذه الملقبة بـ«معبودة الأجيال» أن توجد على أرض الصحراء أصلاً لولا هذه الهبة النفيسة التي تتلقّاها من أرض قرينتها «آدري الشمال» بالمجّان. ويقال أن التنافس بين

الواحتين كثيراً ما أدّى إلى نزاعات خطيرة، بل وتطوّر في بعض المراحل إلى إشعال نار الحروب، ولكن لم يحدث ولا مرّة أن استغلّت «آدري الشمال» حظوتها فاستخدمت ضدّ جارتها سلاح المياه لتميتها ظمأً. والفضل في التحلّي بهذه البطولة لا يرجع إلى روح التسامح بقدر ما يرجع إلى روح الأوائل الذين يرون أن منع الماء عن خصم (حتّى لو كان أعدى عدوّ) ليس جرماً في حقّ الناموس الأرضيّ، ولكنه إنكار للناموس السماوي. ويبدو أن هذه السجيّة لعبت دوراً في نبذ الحروب في مراحل تالية، والاحتكام إلى ساحة النزاهة في المنافسة بين الواحتين كابتداع فنون الإغراء لجذب القوافل، أو التساهل في فرض المكوس، أو في إعفاء الغرباء من دفع الرسوم على التزوّد بالحاجة من المياه، أو في تنظيم حفلات السمر للمهاجرين والأضياف، أو في تحقيق التفوّق في الاحتفاء بقدوم القوافل، أو إطعام السابلة والغرباء بالمجّان.

والواحة تهجع في سهلٍ فسيحٍ تحدّه من الشمال سلسلة من الروابي التي تتسلّق هاماتها أضرحة الأوائل ذات الشكل المستدير الذي تروي سير هؤلاء أنه مستعار من شكل أبنية الواحة الصارم في استدارته في المراحل الأولى، المستعار بدوره من استدارة السور الذي يطوّق الواحة. لأن الاستدارة لم تكن ناموساً إلاّ في عرف الأجيال الأولى التي استنزلت الاستدارة أرضاً وَحياً من استدارة الأجرام السماوية. هذه السلسلة من الروابي تقود إلى جبل

يربض في الشمال كحيوانٍ خرافيّ، ولكنه جبل صارم، منقطع، ممّا يضفي عليه سيماء عزلةٍ رأى فيها أهل الواحة غموضاً يحيي في نفوسهم دوماً إحساساً بالقداسة. من حضيض هذا الجبل تنطلق مرتفعات هزيلة، عارية، طينيّة، موسومة بالبياض، محروثة بطرق القوافل المتجهة غرباً صوب واحة «قدموس» الخالدة. من جهة الشرق تتمددّ متاهةُ خلاء مسطّح مفروش بالحجارة حيناً والحصباء حيناً آخر تتباعد ملفوفةً بذيول السراب حتى تختفي في البُعْد متماهية بقوس الأفق.

في الجنوب يسرح السهل أيضاً. يسرح مسافات طويلة قد تستغرق يوماً كاملاً حتى يدرك السلسلة الجبلية المهيبة التي تحمل على ظهرها صحراء «تينغرت» السماوية. وبرغم البعد إلاّ أن شعفة جبل «هانكاكا» تتبدّى للعيان بوضوحٍ ملثّمةً بزرقة مستعارةٍ من زرقة السماء. تلوح للمشاهد من حضيض الواحة، بل ومن مسافات أبعد من حضيض الواحة، قريبةً جدّاً، ولكنّها تفرّ ما أن يجدّ المسافر في طلبها، كأنّ تلك السلسلة الجبلية النحاسية تتعمّد الهروب من وجوه المهاجرين لتطرح أمام جموعهم سِيَر الأوّلين مجسّدةً في آثارهم التي ترجع إلى آلاف السنين. ففي السبيل إلى القمم تنتشر أجناس الأضرحة وصنوف المقابر قد تختلف في الأحجام، أو تتضارب في ألوان الحجارة، ولكنها لا تخون ناموس الاستدارة. فالأضرحة الأقدم عهداً تتبدّى بحجارةٍ مبعثرة،

ضئيلة الحجم، رمادية اللون، شذّب تساقط الأمطار (برغم ندرتها) حجارتها، وجرفت سيول الدهور شعافها فسوّتها بالأرض مغروسة في طين القيعان، أو ضفاف الأودية. ويتكلّم العقلاء فيقولون أن سرّ بعثرة الحجارة حدث بسبب القدمة، وضآلة حجمها يرجع إلى انتماء أصحابها إلى سلالات الدهماء، ولونها لم يكتسب سيماء الرماد بسبب شموس الأجيال، ولكن بسبب الحرق بالنار في زمنٍ كان فيه أهل الصحراء يحرقون جثث موتاهم.

ولكن مقابر الحضيض والوديان تتحوّل إلى أضرحة حقيقية ما أن يبلغ المسافر المرتفعات المؤدية إلى سفوح السلسلة الجبلية. هنا تتضخّم أحجام الأضرحة، وتختلف ألوان حجارتها، بل وأشكال هذه الحجارة. فالوصايا تؤكّد أن الكهنة والزعماء والأكابر لا بدّ أن يفوزوا بنصيب أوفر من الحجارة في مماتهم كما فازوا بنصيب أوفر من الإكبار في حياتهم. كما يجب أن ينتزعوا لأنفسهم مواقعاً أعلى لبيوت أبديتهم كما انتزعوا لأنفسهم مواقعاً أعلى لمكانتهم في حياتهم الدنيوية. ولكن الزعماء والكهنة وأصحاب الاستكبار لا يقنعون في رحلة الأبدية بهذا الامتياز، ولكنهم يضيفون امتيازاً آخر. فلون الحجارة المستخدم في بيوت أبديتهم يستعير لون الشمس، أي البياض، بالمقارنة مع لون حجارة أضرحة البسطاء المدفونة في أحاضيض الأرض. والامتياز لا ينبغي أن يقتصر على لون الحجارة فحسب، ولكنه يجب أن

يتجلّى في حجم الحجر. فالحجر في أضرحة الأعالي ليس مجرّد قطعة حجر عابرة ملتقطة من السهل، ولكنه لوح حجريّ مستطيل، مصقول، تمّ اختياره بعناية ليكون شاهداً آخر على مكانة صاحب الضريح. ولا يقنع الأكابر بهذا التدبير في سبيل الإبقاء على أثرهم من بعدهم، ولكنهم سنّوا عرفاً آخر ينال بموجبه ضريح أهل الاستكبار نصيباً أكبر من الألواح الحجرية بحيث يتبدّى الضريح عن بعد بروزاً سخيّاً شبيهاً ببروز الرابية أو حتى بروز الجبل. ويعزّى البسطاء أنفسهم على مرّ الأزمان بوصيّة تقول: «ما نفع أن يستولي الأكابر على أكبر نصيب من حجارة الصحراء ليصبّوها على رفاتهم إذا كانوا يرقدون مثلنا في مثوى مستدير سوف يزول طال به الزمان أم قَصُر؟». ولكن أصحاب الاستكبار في رهانهم المميت على البقاء يستميتون في الاعتناء بهويّة الحجارة لأنهم يرون الحجر علامةً لا تختلف عن الإنسان في وجوده الدنيوي كعلامة، ولهذا يعبدون الحجر ويرون فيه برهاناً على خلود (حتّى لو كان مجرّد شاهدٍ على وجود)!

من هذه القمم الجبلية يتدفق نهر هزيل يجري تحت الأرض (لأن الأوائل تعمّدوا أن يستروه بألواح الحجارة وكتل الطين خوفاً على مياهه الشحيحة من بطش الشمس) ليتحوّل إلى قناة سريّة تسري في باطن الأرض لتغذّي الواحة، وتنطلق في أقبيتها الخفيّة من هناك لتواصل المسير حتّى تبلغ واحة «قدموس» في الغرب.

وبرغم الأمان الذي حققته واحة «آدري» بفوزها بهذا الكنز من دون واحات أخرى كثيرة إلاّ أن حكماءها أبوا إلاّ أن يحتفروا آباراً جوفيّة للتزوّد بحاجتهم من المياه فيما لو نشبت حروب فاهتدى الغزاة إلى ينبوع الواحة السرّي الذي يسري في باطن الأرض.

والواحة ورثت ناموس الاستدارة من أحياء القدمة فاستبسلت في الاحتفاظ بالوصيّة برغم تمرّد الأبنية في امتداداتها شرقاً نحو باب «تينغرت»، أو في امتدادها غرباً نحو باب «قدموس»، أو في زحفها جنوباً نحو باب «تارجا»، أو في سعيها شمالاً نحو باب «البحور». ويُرْوَى أن هذه الأسوار استعارت عبر الأزمان روح الارتحال أيضاً فتعرّضت للهدم مراراً كلّما ضاق جوف الواحة بصنوف البنيان فتهجر المواقع الأقدم لتلتهم نصيباً جديداً من أرض الصحراء دون أن تخون، في مسيرتها، وصيّة الدائرة!

6 ـ الزعيم

يتنذّر لؤماء الواحة فيردّدون العبارة التي كادت تتحوّل وصيّةً بسبب التكرار والقائلة: «لا يجتمع سليل صحراء مع سليل صحراء إلاّ واستحضرا الزعيم ليكون في جلستهما ثالثهما!».

والجدل الذي لا يخبو إلاّ ليشتعل على نحوٍ أشدّ لا يقتصر على سيرة الزعيم في أحجية خلوده المزعوم وحسب، ولكنه يخوض أيضاً في أمر غموضه، وغرابة أطواره، وطبيعة سلطانه، وسرّ احتجابه، ولغز هويّته، ولعبته المفضّلة مع الرعايا التي خلع عليها القوم اسم: الخلعة!

يتساءلون في حمّى مجادلاتهم أيضاً عن سرّ عزلته فيتحاجون: ففي حين يقول البعض بأن احتكامه إلى حرم العزلة كان فراراً من نذالات الرعايا وفقدان الحيلة في استرضاء أهل الصحراء، يعترض فريق آخر فينفي عن جلالته هذه التّهم قائلاً أن الزعيم لم يفضّل الحياة في الصحراء مهاجراً فراراً من ولاية هي دَيْن في رقبته، ولكنه انسحب إلى رحاب السكينة ليختلي بمعبودته الخالدة: الحريّة!

وهذه المعبودة الخالدة ترفض أن تشرك بنفسها أحداً مثلها مثل أي معبود. ولكن هذه الحجّة لم تقنع فريق الشكوك الذي ما لبث أن تساءل: «لماذا لا يتخلّى الزعيم عن سلطانٍ لم يكن يوماً في عرف القبائل سوى وزراً إذا كان يفضّل حقّاً الاختلاء بمعشوقته التي ترفض أن تشرك بنفسها أحداً؟».

ولكن حزب اليقين لا يعدم الحجّة أيضاً في دفاعه عن مسلك الزعيم فيقول أن حبّ الحرية ليس جرماً اختلقه الزعيم، ولكنه خطيئة كل الصحراويين. وإذا كان كهنة القبائل يتغنّون بالتخلّي ويكبرون الخلوة في وصاياهم إلاّ أنهم لا يفعلون ذلك إلاّ لكي يخلوا عروش الحكم ليتسابقوا للاستيلاء عليها والانفراد بها. وقد احتلّوا هذه العروش أزمنة طويلة جدّاً كما تروي السِّيَر، ولم يفلح في زلزلة عروشهم هذه إلاّ الزعيم الذي يرجع له الفضل الأول في الجمع بين القطبين: قطب الناموس وقطب الخلق، قطب الواجب وقطب الدنيا، قطب الروح وقطب البدن، قطب السماء وقطب الأرض.

ولكن سيرة النزاع بين الحزبين الخالدين (حزب أصحاب اليقين وحزب أصحاب النكران) لا يتوقّف عند هذا الحدّ. فكثيراً ما انبرى أهل الإنكار يشكّكون في هويّة الزعيم فيؤكّدون أنه لم ينتم يوماً لسلالة غير سلالات أهل الخفاء الذين يدعون امتلاك الصحراء. والدليل؟ ليس ثمّة دليل أقوى من احتجاب الزعيم عن

الأنظار احتجاباً فاق احتجاب أهل الخفاء أنفسهم، لأن الجنّ كثيراً ما استظهروا لأهل الصحراء كلّما اضطرّتهم الحاجة كأن يشتركوا في إنجاز ذلك الجنس من الصفقات المشبوهة التي يختطفون بموجبها أبناء الإنس ليستبدلوهم بأبناء من سلالتهم، أو التنكّر في جلود التجّار والذهاب إلى الأسواق لمقايضة السلع، أو الإغارة على المضارب لانتهاب حِسَان الإنس. أمّا الزعيم فلم يحدث أن وقعت عليه عين إنس منذ تخلّى لا ليعتزل فحسب، ولكن ليتوارى عن الأنظار أيضاً.

لدحض هذه التهمة يغرق صحبان اليقين في ترديد روايات لا تخلو من غموض تتحدّث عن حقيقة الزعامة التي لا تستقيم أبداً بدون حجاب. ويروق لحزب اليقين هذا أن يتغنّى بفضائل الحجاب بلغة لم يحدث أن أفلح بسطاء في فكّ طلسمها أو أدركوا لها فحوى. فالزعامة في يقينهم تجديف في حقّ السماوات بطبيعته يستوجب أفدح أجناس القصاص، وصاحب هذا السلطان لا يقدّم نفسه (بخياره هذا) قرباناً في يد الخلق وحسب، ولكنه يعرّض حياته لأخطار البلايا من ذلك الضرب الذي تنسجه الأقدار فلا يملك المخلوق الشقيّ لردّه سبيلاً. ولهذا السبب فإن الاحتجاب ليس حيلة فحسب، ولكنه ضرورة لاتّقاء مثل هذه الشرور. والغياب عن الأنظار هو أيضاً تنكّر استدعته فروض تأدية الواجب الملقى على عاتق صاحب هذا اللقب المهيب دفعاً لهلاكٍ محقّق لا بدّ أن يدفعه الزعيم ثمناً لخطيئة قبوله تولّي هذه الأمانة!

ويقال أن مثل هذه البراهين كانت السبب في إشعال نار الفتنة بين الفريقين أدّت إلى نشوب حروب بينهما. ذلك أن حزب المشككين ما لبث أن أطلق النداء الذي يقول في حرفه: «إذا كانت الزعامة رذيلة فلماذا لا يتنصّل الزعيم من شرّها بالتخلّي عنها؟». فيردّ حزب اليقين قائلاً: «إذا تخلّى الزعيم عن الزعامة وهي قدره والدَّيْن المعلّق في رقبته فمن الجدير بأن يصير له بديلاً ليتولّى من بعده أمر الصحراء؟!».

الجدل قاد الفريقين إلى حقيقة الزعيم. ففي حين روّج فريق النكران إلى انتماء الزعيم إلى سلالة الجن متحجّجاً بسيرة الحجاب أثار فريق ثالث مشكلة أخرى تتهمه بالتلاعب بوصايا ناموسٍ كان هو نفسه يوماً علّة وجوده. فقد ادّعى هذا الفريق أن الزعيم لم يكن ليستأثر بالزعامة طوال هذا الوقت لو ولدت له أخت من جوفها ابناً يكون له في أرض الصحراء خليفةً. ولكنه عمد إلى إنكار ملّة الأخوات ليستبدلها ببدعة الخلعة التي يبعث بها إلى من يشاء لتكون له علامةً تؤهّله ليصير لجلالته على رقاب النّاس وصيّاً ممّا أدّى إلى صرف الأنظار عن حقيقة وجوده والانصراف إلى التنازع المميت لامتلاك خلعته.

حزب اليقين احتكم إلى سيرة الرسل لتكون له البرهان الأخير على حقيقة الزعيم بعد أن أعيته الحيلة في إقناع الخصم بوجود شهود العيان الذين أكّدوا رؤية الزعيم أثناء خلواتهم في الصحراء،

ولكن سيرة الرسل أخفقت أيضاً في تحقيق برهانٍ لا يأتيه الباطل لا من أمامٍ ولا من خلف، لأن حزب النكران أشاع أن الرسل لم يكونوا يوماً رسلاً لرسالات الزعيم، ولكنهم كانوا دوماً رسلاً لأنفسهم، رسلاً لرسالاتهم، رسلاً لرؤاهم، بل ورسلاً لخلعتهم أيضاً لا لخلعة الزعيم!

عمّ الصحراء بعدها كابوس، واستولت على القبائل البلبلة؛ تلك البلبلة التي أدّت إلى إشعال نار فتنٍ عانت من ويلاتها الصحراء طويلاً، لأن فريق النكران لم يكتفِ بالإنكار هذه المرّة، ولكنه أطلق نداءً زعزع القوم أكّد فيه أن الزعيم لم يكن يوماً سوى خرافة من تلك الخرافات التي تصلح لتسلية الصغار في ليالي الشتاء الطويلة. وهو لم يعتزل، ولم يحتجب، ولم يُقتل بطعنة من طعنات الغيلة لأنه لم يولد أصلاً، ولم يوجد يوماً. أمّا أهل اليقين فحشدوا كلّ ما امتلكوا من براهين في مسيرة تاريخهم الطويل ليدلّلوا لا على وجوده وحسب، ولكن على خلوده أيضاً!

7 ـ الخطيئة

في أدغال الحقول التي تجاور سور الواحة الشمالي، تحت شجرة نخيل سامقة، تحلّق ثلاثة رجال، أحدهم أحدب الظهر، ممتلىء البدن، جاحظ المقلتين، مقنّع بلثام كئيب اللون، يتدثّر بجبّة جلدية مريبة الهويّة، ينحني على الأرض ليختطّ على التراب رموزاً خفيّة. أمّا الثاني فيبدو أطول قامة، بظهر أكثر استقامة، بِبُنيَة أكثر نحولاً، يتزمّل بلثامٍ مخطّط، يرتدي ثوباً واسع الأكمام منسوجاً من أوبار الإبل، وربّما من أنعام أخرى قرينة للإبل. أمّا الثالث فيتمدّد على الأرض مستلقياً على ظهره، يتطلّع إلى السماء الزرقاء، العميقة في زرقتها، اللامبالية في صورتها، يكشف لثامه عن لحية كثّة موسّمةً بالشيب، وأنف طويل ينتهي برأس مدبّب شبيهٍ في الحدّة بمنقار الطير.

كانوا يسترخون بعد ظهيرة يومٍ قائظ، ولكنّهم لا يستطيعون أن يستسلموا لسلطان الاسترخاء، لأن سيرة الزعيم لا بدّ أن تتدخّل لتكون بينهم جليساً رابعاً كما يحدث لكل الجلساء.

تكلّم الأحدب بصوتٍ بحيح كأنه يعاند ليحرّر خناقه من قبضة مارد:

ـ الخلعة على بدن «أساناي» كانت طعنةً في عدالة الزعيم. لقد قلت لكم ذلك منذ أوّل يوم.

سخر منه صاحب النحول:

ـ تتكلّم عن عدالة الزعيم كأنّك تؤمن بوجوده يا «أسان»!

ولكن عينا صاحب الجبّة الجلدية المريبة ازدادتا جحوظاً عندما هبّ ليحاجج:

ـ لقد قلتُ دائماً أني آخر من سيصدّق وجود الزعيم حتّى لو دلّل لي على وجوده بالخروج لي في جرم اللحم والدّم، ولكني لم أَمَلْ من أن أردّد أيضاً بأن الشيء الوحيد الذي يجب أن نختلقه إذا أعيتنا الحيلة في أن نجده هو الزعيم!

صاحب النحول اختلس نظرة خفية إلى صاحب أنف المنقار ليقول:

ـ هل سمعتَ يا «إيزير»؟ أسان يريد أن يخون العهد!

ترافع «أسان» بلهجة لم تخلُ من حماسة:

ـ ضرب الأخماس في الأسداس في مسألة الزعيم ليس خيانةً للعهد، ولكنه استجابة لواجب التشكيك في كل قناعة أو مسلّمة!

تكلم «إيزير» دون أن يكفّ عن ملاحقة العمق الأزرق في متاهة السماء:

ـ إذا كان أسان يرى في الخلعة طعنةً في عدالة الزعيم، فإنّي

أرى في الخلعة طعنة لا في عدالة الزعيم فحسب، ولكن طعنة في حقيقة الزعيم!

هتف صاحب النحول:

ـ مرحى! مرحى! هذا ما أردتُ أن أسمعه من فم الجليس لا الهراء عن ضرورة اختلاق الزعيم الذي تكلّم به أسان!

اعتدل «أسان» في جلسته، ولكن حدبة الظهر خذلته فازداد في جلسته انكفاءاً نحو الأرض. قال:

ـ حسناً يا أبطال! إذا كانت الزعامة في رأيكم خطيّة الخطايا كما تقولون دائماً فماذا ستكون الخلعة التي تخلعها الزعامة؟

تبادل صاحب النحول مع «إيزير» نظرة ذات معنى. تململ صاحب النحول ولكن إيزير سبقه إلى الجواب:

ـ أظنّ أن اللهفة إلى ارتداء الخلعة ما هي إلاّ لهفة لانتحال دور الزعيم!

تبادل الجلساء النظرات. تساءل أسان بعد صمت:

ـ ماذا يرى «أمازار»؟

طأطأ أمازار زمناً. قال:

ـ إذا أيقنّا بصحّة ما قلتما فلا شكّ أن الخلعة هي ضرب من ظلّ!

استعجب إيزير:

ـ ظلّ؟

أجاب أمازار:

ـ ليست ظلاً فحسب، ولكنها شرَك! مكيدة حقيقية!

تساءل أسان بذهول:

ـ هل قلت أنها شرك؟ هل قلت أنها مكيدة؟ هيء ـ هيء ـ هيء..

كتم ضحكته ثم أضاف:

ـ أمّا أنا فلم أحسب الخلعة سوى مسخ من المسوخ!

قاطعه أمازار:

ـ يجب أن نحترس في اختيار النعت المناسب يا رفاق الحقّ قبل أن نقف في الساحة لنقنع الناس!

أيّده إيزير:

ـ أمازار على حقّ. يجب أن ندرك يقيناً فيما بيننا عمّا إذا كانت الخلعة مسخاً من المسوخ كما يقول أسان، أم أنها ظلّ، أو شَرَك، أو حتّى مكيدة مدبّرة، كما يذهب أمازار. هل تدرون لماذا؟

استفهم الجليسان بسيماء اللهفة في وجهيهما فأضاف إيزير:

ـ لأن للأسماء على العقول سلطانٌ يفوق سلطان الجنّ يا رفقاء الحقّ!

تكلّم أسان بغصّة أقوى:

ـ سمعتُ «إيدبنان» في ردّه على أحد أصحابنا يقول أن ثمّة تميمة واحدة قادرة في دنيا الصحراء على أن تغسل خطيئة الزعامة إذا كانت الزعامة خطيئة حقّاً كما يزعم أهل النكران: هذه التميمة هي الحرية!

ساد سكون قبل أن يتساءل إيزير:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

أجاب الأحدب أسان بصوت ضائع:

ـ أردت أن أقول أننا يجب أن نجتنب استفزاز أهل اليقين بالألفاظ إذا شئنا أن نسحب تحت أقدام الخصوم البساط!

استنكر أمازار:

ـ بماذا تريدنا أن نقنع الخلق إذا كنتَ لا تريدنا أن نستخدم الألفاظ؟ أم أنّك تريدنا أن نستخدم لغة الإيماء كما يفعل البلهاء؟

ابتسم إيزير في حين أجاب أسان بصوت يكاد يغيب بسبب البحّة:

ـ ولماذا لا نستخدم لغة الإيماء؟ هل نسيت وصيّة الناموس التي تقول أن الحكماء لا ينبغي أن يتحدّثوا إلاّ إيماءاً؟

شكّك إيزير في الوصيّة بالقول:

ـ أظنّ أن الوصية أوصت بالتحدث رمزاً لا إيماءاً!

تردّد أسان لحظة. تساءل:

ـ وما هو الرمز في عرفك إن لم يكن إيماءاً!

قال إيزير بغموض وهو يتابع الزرقة في عمق السماء:

ـ لا أدري. يخيّل لي أن ثمّة فرق برغم أني لا أنكر وجود قرابة!

أطلق أمازار ضحكة استخفاف قبل أن يضع حدّاً للجدل:

ـ دعونا من الألفاظ ودلّونا على سبيل نجيب به حجّة الدهاة الجدد الذين يقولون أن احتجاب الزعيم عن الأنظار ضرورة، لأنه لو لم يحتجب لأنكره حتّى أهل اليقين أنفسهم!

قال إيزير:

ـ نحن لا نصدّق إلاّ ما نرى، ولا نؤمن إلاّ بما اختفى، أليس هذا فساد في طبيعتنا؟ أليس هذا مفارقة؟

هتف آسان محاولاً أن يحرّر بلعومه من الغصّة:

ـ ها أنت تنحاز إلى حزب أصحاب اليقين دون أن تدري!

ولكن إيزير خيّب ظنّه:

ـ بل أدري! لأن من يريد أن يكسب الجولة ضدّ الخصم فعليه أن يعترف بقوّة حجّة الخصم؛ لأننا لا نحقّق غلبةً على عدوّ نرفض أن نعترف بقوّته!

قال أمازار:

ـ جدير بنا أن نقلّب أمر الشائعة.

قال إيزير من رحاب سمائه الزرقاء:

ـ لا أعرف لماذا يرى الناس في تلبّس الجلدة بالجلدة أعجوبةً!

قال آسان:

ـ ما استثار فضول الناس ليس تلبس الجلدة بالجلدة كما تقول، ولكن لأن التلبّس أقام الدليل على هويّة الخلعة!

تساءل أمازار:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

تردّد آسان لحظات. ازدادت مقلتاه بروزاً من محجريهما. قال:

ـ ألا يدلل ما حدث على حقيقة الخلعة الملفقة من جلود البشر لا من جلود الحيوانات المنقرضة كما يؤكد رسل الزعيم إذا كانوا رسلاً لزعيم حقّاً؟

نهض إيزير على مرفقيه. تساءل:

ـ وهل شككتَ يوماً في هوية الخلعة الملفقة من جلود مريدي الخلعة؟

تنقّل آسان ببصره بينهما حائراً. قال أمازار:

ـ الخلعة جنس لباس. واللباس في ناموس الصحراء يجب أن يكون جلدة الإنسان التي وُلد بها ككل حيوان لا جلدةً يستعيرها

من الأغيار ما دامت طبيعتنا مستعارة من طبيعة صحرائنا. والخطيئة هي أن نفتّش عن جلباب أغرابٍ نرتديه بديلاً عن جلدتنا!

صاح إيزير:

ـ ألا يعني هذا أن اللباس كلّه خطيئة في خطيئة؟

أجاب أمازار:

ـ بالطبع. اللباس في أصله علامة خطيئة لأننا ولدنا عرايا ليكون لنا جلدنا لباساً، كما وُلدنا من بطون أمهاتنا أحراراً!

تساءل أسان بذهول:

ـ ألا يعني هذا أننا بهذا اللباس لسنا أحراراً؟

أجاب أمازار بيقين:

ـ نحن بهذا اللباس أسوأ أجناس العبيد. نحن بهذا اللباس خطاة!

تدخّل إيزير:

ـ نحن نرفض الخلعة ليس لأنها كبيرة كبائر ومنكر مناكر فحسب، ولكننا نرفضها لأننا لا نريد أن نكون إلاّ خلعةً لأنفسنا!

ساد صمت. أسان انكبّ على رموزه المحروثة في التراب. إيزير توغّل في الرحلة إلى العمق الأزرق في السماء. أمازار تطلّع إلى شعاع الغسق المسربل بالدّم. ولكن ثلاثتهم تشبّث بتلابيب

سكونٍ كان في الناموس دائماً معبوداً. تمتم أسان وهو يعاند رموزه:

ـ هل تريد أن تقول أنّنا خطاة لأننا لم نعد عراة؟

لم يستجب للسؤال أحد فاستشعر آسان خجلاً لأنه استباح بكارة الصمت. استباح وصيّة من وصايا الناموس. ارتكب إثماً لأنّه استبدل اللغة بالعضلة. اقترف الخطيئة كما اقترفها معه القرينان منذ قليل تلبيةً لشهوة اللسان فاغترب عنهما كما اغتربا عنه. لأن التعبير بالكلم خطيئة لا تختلف عن خطيئة التعرّي إذا استبدلت بالصمت. لأن الصمت ترويضٌ للنفس على الحكمة، كما الحكمة ترويضٌ للنفس على الموت!

8 ـ الطريدة

عاش «آساناي» هذا الكابوس مرّتين: مرّة في الزمن الذي سبق نيْل الخلعة، ومرّة أخرى بعد بلاغ الرسول القاضي بخلع الخلعة!

لم يكن كابوس منامٍ، ولكنه كان كابوس يقظة، وهذا أسوأ ما في الأمر: إحساس مبهم بالخطر. إحساس مميت بالعزلة. إحساس غامض غموض الموت بحقيقته كمخلوق خاوٍ، مهجور، وحيد، ومفقود. لم تفلح التجارة في أن تصير له في هذه المحنة عزاءاً (ربّما لأنه لم يفلح يوماً في عقد صفقة حقيقية)، ولم يهبه الحظّ حظوةً في أعين النساء كي يصرن له دمَى، كما لم يجد في الناس صدقاً يستطيع أن يسمّيه صداقةً. بل لم يجنِ من لهفته لملاقاة الناس سوى الخيبة والنكران وحتّى صنوف الكيد. لا يرى في منامه أحلاماً ولا في يقظته آمالاً. لم يرَ في حياته كلّها سوى خواءاً يلد خواءاً فعرف مرارة أن يعجز الإنسان حتى عن أن يأمل نهاراً أو يحلم ليلاً. هذا العجز حوّل حياته كلّها إلى كابوسٍ أشبه بالوفاة فأيقن أن الموت ليس أن نموت، ولكن الموت هو أن نفقد الأمل. الموت هو أن نعجز عن الحلم. الموت هو أن نجهل

لماذا جئنا لا لماذا نذهب. فهل هذا هو ما يسمّيه الناس فشلاً؟ أم أن هذا الإحساس هو مرض يستوجب الاستشفاء؟

لا ينكر أنه اقترف الخطايا، بل وارتكب الكبائر، ولكن مِنْ مخلوقات هذه الصحراء لم يقترف إثماً أو لم يرتكب كبيرةً؟ بل لم يرتكب هذه الخطايا إلاّ دفاعاً عن النفس، ولم يقترف الكبائر إلاّ دفعاً لخواء القلب. ففي الأيام التي أعقبت محنته التجارية وسبقت بيع القرينة في ساحة السوق تناول حبل المسد وذهب إلى الحقول. في الطريق إلى هناك لم يعرف غير التصميم. التصميم في نيل الخلاص أيقظ فيه إحساساً غريباً باللّذّة. لذّة لم يعرفها يوماً. لذّة سَرَت في الدّم واستولت كالخدر على كل طرف من أطراف البدن. لذّة كانتشاء الوجد. لذّة أنه يدبّ على قدمين، ويعبر الجداول المغمورة بالماء، ويستنشق هواء المساء البليل الممزوج بروائح العشب والطين. لذّة المسير في العراء. لذّة الغروب وهو يطرح في الأفق غلالة بلون الدّم. لذّة الصحراء التي تطوّق الأسوار من أركانها الأربع وتفيض في عريّها بالإغواء. لذّة الأنفاس وهي تتردّد في قفص الصدر. لذّة كانت تتمادى في سطوتها وتستميت لتمتلكه. أدرك غابات النخيل فتطلّع إلى أعلى. كانت نحيلة، مستقيمة في رحلة استكبارها إلى أعلى، مثقلة بعراجين بلحٍ ثريّة في الكمّ، جسيمةٍ في الحجم. هبّت نسمة شمالية خفيفة فاستجابت القمم برقصة استسرارٍ لا يعرف لماذا قرأ

فيها فتنةً. قرأ فيها لذّةً لم يعرفها. كانت اللذّة تطغى لتستولي على كل شيء يقع عليه بصر، أو يشتمّه أنف، أو تسمعه أذن، أو تلمسه الكفّ، أو يوسوس به القلب.

تحت قدميه سقطت حبّة بلح نضج نصفها في حين احتفظ نصفها الباقي بلونه الأصفر. انحنى وتناول الحبّة. تأمّلها في راحة اليد وهو يستشعر كيف تتحوّل اللذّة الطاغية إلى إحساس آخر لم يعرفه يوماً. إحساس لا بدّ أن يكون سعادة أو ما يسميه الناس سعادة. رقصة الوجد في الشعفة لم تكن بلا معنى، لم تكن بلا رسالة. رقصة الاستسرار ألقت له بوصيّة. الوصيّة قالت أن النخلة لا ترقص استجابةً للريح، ولا تغني من باب العبث، ولكنها تتمايل لتصنع هديّة. ترقص لتهب للسابلة سعادةً. درس النخل علّمه الجود، علّمه السعادة التي لا ننالها إن لم نهبها، ولا توهب لنا إن لم نتخلّ عنها. هذا يعني أن السعادة ليست عنقاء الخرافة. هذا يعني أنه ما يزال على قيد الحياة من حيث حسب نفسه في عداد الأموات. هذا يعني أن الموت وحده يستطيع أن ينقذ الناس من الموت. طلب الموت هو الذي يهب الإنسان الحياة. الموت هو الذي وهبه الإحساس بلذّة أن يحيا في لحظةٍ وجد فيها نفسه في برزخٍ يشرف على الموت. أدرك يومها أنه لم يكن ليعرف عمّا إذا كان حيّاً حقّاً لو لم يجد نفسه في قبضة الموت. ألقى بحبل المسد تحت جذع النخلة في ظلمة ذلك المساء وعاد إلى البيت بكفّ تقبض حبّة بلحٍ ذهبيّة!

ولكن الاحتفاظ بالغنيمة لم يدم زمناً طويلاً، لأنه لم يحدث أن أفلح مخلوق في الاستيلاء على كنز ثمّ استطاع أن يحتفظ به طويلاً. غرق في دوّامة الدنيا طلباً لحطام الدنيا فأفلت الطائر. فرّ الطائر الجفول بالسليقة لأنه لم يحدث أن استمرأ مقاماً اشترك فيه مع شهوة. إذا استيقظت الشهوة حلّت البلبلة، وإذا حلّت البلبلة انقشع الإحساس باللّذة، ينقشع الإحساس بلذّة الحياة لا لذّات الدنيا. استدرجته الصفقة فلم يعرف بعدها غير الشقوة، لأن الزلّل هو عملة السوق الذهبية البديلة للعملة المسبوكة من معدن الذهب حتى لم يستنكر أن ينتهي به المطاف لرهن القرينة ببيعها في ساحة السوق. استشعر الغثيان بالفعل ولكنه لم يعدم أن يقنع نفسه بالمبرّر. نسي اللحظة المجبولة بالإلهام التي استخفّ فيها بنيّته في لفّ حبل المسد حول الرقبة لأن شجرة النخيل لقنته درساً. وها هو الآن يستسخف موقفه في ذلك اليوم لأنه صدّق وجود أكذوبة اسمها الحقيقة، أكذوبة اسمها الخلاص، أكذوبة اسمها السعادة!

إلى أن جاء اليوم الذي أقبل فيه الرسول حاملاً في عبّه البشارة، حاملاً في البشارة ما راق له أن يسمّيه طريدةً. لماذا أطلق عليه اسم الطريدة؟ لأن الخلعة كانت الحيلة الوحيدة التي شلّت فيه الإحساس. شلّت فيه الدّاء الذي لم يعثر له على ترياق. بل لم يعثر له حتّى على اسم فكيف بالترياق؟ ويقال أن هذا الضرب من الدّاء هو الذي أهلك الخلق في ذلك الزمن البعيد الذي كانت فيه

الصحراء بستاناً سخيّاً ولم تنقلب صحراء بعد. في ذلك الأوان كان كل شيء في متناول اليد، ولا يحتاج المخلوق لأيّ عناد لكي يفوز بكل ما اشتهى أو أراد. ولكن الناس كانوا يهلكون في ميتاتٍ جماعية غامضة بسبب هذا الرخاء. هلكوا بداءٍ خفيّ حيّر الكهنة وأخفق في مداواته العطّارون وأصحاب العقاقير إلى أن جاء اليوم الذي حلّ فيه على القبائل الدّاهية المسمّى في وصايا الأجيال «وانتهيط» ممتطياً صهوة حيوانٍ منكر بأذنين طويلتين، وسحنةٍ مستطيلة، وصوتٍ أنكر، ورثته الأمم باسم «الأتان». هذا المخلوق الخفيّ الذي صار مضرب الأمثال في الدّهاء هو الذي كشف للناس اسم الدّاء الذي لم يكن سوى الكآبة!

وعندما طوّقه القوم وحاصروه بالأسئلة التي تتلهّف لمعرفة الدواء أجاب قائلاً أنه الطريدة!

لم يصدّق القوم أن تنقلب الطريدة ترياقاً للموت، ولكن الداهية احتكم إلى لغة العبارة لإيضاح ما أخفته لغة الاستعارة عندما قال أن الإنسان ولد قنّاصاً بالفطرة، ولا معنى أبداً لوجود القنّاص إذا لم يجد هذا القنّاص ما يقتنصه في رحلة الصيد التي يطلق عليها البلهاء اسماً بديلاً هو الحياة الدنيا خطأً. لأن هذه الأحجية التي تسمّى إنساناً لا يقنع في رحلة صيده، ولا يستشعر ما يسمّيه الكهنة سعادةً، ما لم يحوّل كل شيء في طريقه إلى طريدة. فالحرفة، كل حرفة، يمتهنها هي طريدة. والمرأة إذا

راقت له هي طريدة. وإنجاب الذرية هي طريدة. والخلاّن ما هم إلاّ طرائد أيضاً. والصلاة جنس من طريدة، لأن المعبود كذلك ما هو إلاّ طريدة!

لقد استعاد الوصايا في ذلك الزمن الذي حوّلت خلعة الزعيم في طريقه كل شيء إلى طريدة فوجد أنّها أنقذته. أنقذته لأنها أنسته. انقلاب الدنيا في وجه المريد طريدةً هو الترياق الوحيد للاستشفاء من داء الكآبة. من داء اللامبالاة. من داء اليأس. من داء المنفى أيضاً. أجل، أجل. لقد أدرك أنه كان مخلوقاً مغلولاً بالمنفى دون أن يدري. هل الخلعة ختم من أختام المنفى أيضاً كما يدّعي أهل العزلة؟ لن يضير الخلعة أن تكون رسالة منفى إذا كانت تجير من المنفى. لن يضير الخلعة أن تخفي في ثنايا جوفها ذلك البعبع الذي يختلس من الإنسان حقيقة الإنسان ليتركه جوفاً خاوياً (كما يقول البلهاء) إذا كانت الترياق الذي يجير من الخواء. يكفي الخلعة مجداً أنها تهب ذلك الامتياز الذي لا يهبه شيء آخر في صحراء الأنام هذه أَلا وهو الانتقال من صفوف العُبَّاد إلى مصاف المعبودات. بلى، بلى. الخلعة صيّرته معبوداً بعد أن كان عبداً. الخلعة خلعت عليه الهالة السحرية فوجد نفسه معبوداً بين يومٍ وليلة. لم يفلح في كتمان قهقهته المزلزلة ساعة اكتشف هذه الحقيقة. أدعياء الحكمة الذين لا يملّون التشدّق بوصايا الناموس يطعنون في هذا الإحساس فيقولون أنه كاذب. يقولون أن خطورة

الخلعة إنما تتخفّى في هذا الشرك بالذّات. وهي لهذا السبب ليست تجديفاً في حقّ الناموس فحسب، ولكنها خطيئة أيضاً. خطيئة ليست في حقّ الناموس وحسب، ولكنّها خطيئة في حقّ الزعيم الذي اخترعها. هذا الفريق يذهب إلى نعت الخلعة بالبدعة التي اخترعها أهل الخفاء ولم يخترعها الزعيم يوماً. لأن رسالتها الإطاحة بصرح الناموس الذي أوصى به الزعيم يوماً، ولم يكن له أن يخونه بابتداع خلعة تقوّض سلطان الناموس في نفوس الناس، والدليل على ذلك وصيّة الأزل التي تجري على لسان الأجيال والقائلة: «لا سبيل لمن ضلّ غير الاحتكام إلى الناموس». ويروق لهؤلاء الأدهياء أن يضيفوا للوصيّة وصيّة أخرى مستعارة من ناموسهم هم لا ناموس الأجيال تقول: «الوصيّة قالت أن المرجع يجب أن يكون وصايا الناموس لا خليفة ينصّبه الزعيم بخلعة ملفّقة من رقوق الجلد. لأن حضور الزعيم في حضور الناموس، وغياب الزعيم في غياب وصايا الناموس». يتشدّقون بهذا الهراء ثم لا يجد هؤلاء حرجاً في أن يهرعوا إليه ليستجدوه قضاء حوائجهم!

كثيراً ما همّ بأن يركلهم بالنعل ويبصق في وجوههم قائلاً: «إذا كان الناموس هو معبودكم فلماذا لا تلتجئوا إليه ليقضي لكم حوائجكم؟!». ولكنه لم يفعل ولا مرّة. لم يفعل لأنه لم ينسَ كم هم أشقياء. لم ينسَ أنهم أشقياء لأنهم لم يجدوا طريدتهم. والإنسان إذا عدم وجود الطريدة فقط يذهب ليحتكم إلى ساحة

الناموس وما أدراك ما الناموس. يذهب ليدفن خواءه في وصايا الناموس. لقد تعلّم بفضل الخلعة الغفران أيضاً. غفر للذين أساءوا له في الماضي كلّما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولم يقتصّ من السفلة إلاّ تلبيةً لنداء العدالة. غفر لهم برغم أنه يعلم أنهم سينكرون غفرانه لأنهم لن يستطيعوا أن يتباهوا بالانتماء إلى ملّة الصحراء إذا لم يتفنّنوا في نكران الإحسان. وها هم يتسابقون لتلبية نداء النكران هذا ما أن تنزّلت على رأسه النازلة. تنكّروا ما أن أقبل عليهم رسول الزعيم حاملاً رقعة الاستجواب. نسوا طوافه على بيوتهم سعياً على الأقدام ليستفهم عن أمرهم ويقضي لهم حوائجهم. نسوا عطاياه. نسوا حقوقاً مزعومة وهبها لهم دون وجه حقّ. نسوا منازعات فضّها بينهم بالعرف. نسوا حرصه أن يسعى بينهم بلا عسس، بلا خدم، بلا حجّاب لا ليبرهن لهم على انتمائه إلى ملّتهم فحسب، ولكن ليدلّل لهم على ثقته فيهم. نسوا كيف يسَّرَ على رقابهم أغلال المكوس، وحرّر أكثرهم من ديونٍ تهدّدهم بالوقوع في قبضة العبودية. نسوا الحسنات وتكلّموا في حضرة الرسول بالزور. لم يحدّثه الرسول بشهادات الزور تفصيلاً، ولكنّه لن يشكّ أن الطغيان سوف يكون على رأس هذه التّهم. لأن الناس لا بدّ أن يفعلوا ذلك انتقاماً. لا بدّ أن يقذفوا بهذه التهمة ليدافعوا عن أنفسهم. ليستعيدوا ثقتهم بأنفسهم. هذه الثقة التي زعزعها بيعهم لكبريائهم مقابل قضاء الحاجة. الإحساس بالعار الناجم عن صفقة يدفعون بموجبها الذّلّ لينالوا سلعة بخسة هي حطام الدنيا.

إنهم يرفضون لأنفسهم هذه الخطيئة، ويشترون إحساسهم بالإثم برجم وليّ الأمر بالطغيان لهفةً منهم لكي يصير في يقينهم قرباناً بعد أن كان في نظرهم جلاّداً. هؤلاء هم الرعايا الأشقياء منذ انقسم القطيع في الصحراء إلى رعايا، وإلى رعاة. فكيف لا يغفر لهم ضعفهم هذه المرّة أيضاً كما غفر لهم قبلها نفاقهم؟ بل كيف لا يكبرهم إكباراً جزاء استكبارهم ورغبتهم في استرداد كرامتهم الضائعة؟

يعترف اليوم بأنه أحبّ الخلعة حبّاً جمّاً. أحبّها لا لأنّها سلطان، لا لأنها غنيمة، ولكن لأنها طريدة حتّى أن الشلل أصاب فيه الحواس في اللحظة التي سمع فيها من فم الرسول نبأ النعي. لأنه تخيّل نفسه طريداً، ضائعاً، منقطعاً ومنبوذاً وهو الذي آمن دوماً بأن رسالة الصيّاد ليست أن يقتنص إذا خرج في رحلة صيد، ولكن رسالة الصيّاد أن يطارد. لأن الصيّاد لا يحيا إن لم يمارس الصيد في رحلة الصيد. الصيّاد يموت كمداً إذا غنم في رحلة الصيد لأن الفوز هنا هو إيذان بانتهاء رحلة الصيد! وهو أيضاً مهدّد بانقطاع الحبل في رحلة الصيد إذا تنازل للرسول عن الخلعة. لا ينكر أيضاً أنه فكّر في حيلة لاستبقاء الخلعة أطول أمدٍ ممكن. بل فكّر في حيلة لاستبقاءها على منكبيه إلى الأبد. فكّر في حِيَل لم توقظ فيه الحياء فحسب، ولكنه فكر في الحِيَل التي تقشعر لها الأبدان ويشيب من هولها الرضيع.

فكّر في اقتراف أقبح الآثام فلم يستعجب عندما نهض في هجعة القيلولة ليجد الخلعة وقد تشبّثت بلحمه كأنها نبتت في اللحم نبتاً. لم يكن عسيراً عليه أن يدرك أن تشبّثه بها هو سرّ تشبّثها به. والساحر لم يكذب عندما قال له أن الإنسان لا بدّ أن يصير جزءاً من أي شيء أحبّه حبّاً جمّاً. لأن الحميم لا يصير حميماً إن لم نكن له خلاً حميماً. فإذا كانت الخلعة سلطاناً فذلك لأنها لباس. لأنها تشترك مع اللباس في هويّتها كخطيئة. بلى. الخلعة خطيئة لأنّها انتحال منكر لدور ذلك المجهول الذي تعدّدت فيه الأسماء ولم تتعدّد فيه حقيقته. وهو لم يخطىء عندما استعار لحم خلعته ليجعل منه مع لحمه قطعةً واحدة. لأنه يرفض بالسليقة التجزئة. لأن الوسام الذي يهبنا الحقّ في أن ننطلق لمطاردة الطرائد يجب أن يكون جزءاً لا يتجزّأ من أبداننا لا قطعة جلدٍ تُخلع على المنكبين ثم تُنتزع من المنكبين. هذه إشارة يجب أن تتغلغل فينا، لأنها حقيقتنا. لأنها حريتنا. لأنها أخيراً هي الحياة، لا ظلّ الحياة الذي نعيشه بغياب الطرائد فنتوهّم أنه حياة!

تساءل وهو يستند على جدار داره (التي لم تختلف عن دور الدهماء ظنّاً منه أنه سيكتسب بهذا التواضع ثقة الرعايا): «هل أخطأت يا آساناي في كتم أنفاس الساحر؟ هل أخطأت في التخلّص من العبد؟ هل أخطأت في انتزاع لسان الحسناء ظنّاً منك أن الإنسان يمكن أن يبقى إنساناً بلا لسان؟ ألم يكن الصواب قطع

رأس الحيّة بدل انتزاع ناب الحيّة؟ ثم.. ثمّ هل يُعقل أن يطمع في الاحتفاظ بالعشق بعد أن انتزع لسان العشق؟». عَبَّر عن الضيق بزفرةٍ حارّة. تململ في استعانته بالجدار مراراً.

اعتدل في جلسته قبل أن يعترف: «اللجوء لكتم أنفاس الناس أو انتزاع ألسنتهم كتماً للسرّ ليس مجرّد خطأ، ليس مجرّد جرم في حقّ الأعراف، ولكنه خطيئة. لأن ما وُجد وُجد ليُعرف، لا ليُخفَى. والأبله هو من يحاول إعادته إلى جوف الخفاء. بلى. أنت أبله يا أساناي! وها أنت تقدّم دليلاً آخر تبرهن به على إخفاقك في أن تفعل أي فعل صائب، يا أساناي، لا في يومك هذا فحسب، ولكن في كل أيام حياتك!». تفقّد الخلعة الجلدية المغروسة في الجلد. تحسّسها براحة يده. كان لونها قريناً حميماً للون جلدة البدن. كأنّها قشرة البدن ضلّت طويلاً. اغتربت طويلاً قبل أن تجد السبيل من جديد إلى ديار الوطن. لأن لا جدوى من عضوٍ اغترب عن أصل. لا جدوى من شيء أضاع مسقط رأسه. ولهذا فإن الاغتراب خطيئة برغم أنّها الخطيئة التي تشتري الحرية. بل أنبل ضروب الحرية هي تلك الحرية التي تُشترى بالخطيئة. وها هي القشرة تنهي رحلة اغترابها، تنهي خطيئة اغترابها، تنهي حريّتها لتعود فتتماهى بالبدن، تلتحم بالجسد لا لتصنع منه لباساً، لا لتبدع منه حجاباً، ولكن لتصير معه كُلاً واحداً. كلاً حميماً واحداً. وإذا كان البلهاء قد ظنّوا (بما في ذلك الرسل) أن الزعيم

يخلع على أخياره خلعة مركّبةً من جلود الحيوانات الصحراوية المنقرضة، فهم واهمون. الزعيم لا يخلع على أبدان أخياره سوى خلعاً من أبدان الأخيار التي اغتربت عن أبدانهم يوماً فيعيد لهم بالخلع ما فقدوا يوماً في أبدان الأسلاف الذين اغتربوا. يحيي أبداناً هلكت ويعيدها في الخلعة غنيمةً حيّة. يعيدها طريدةً تحيي. يستعير من أبدان الرميم جلدةً ليهبها للأخلاف تميمة لمداواة الخواء، لمداواة الموت، ولإبداع الحياة.

هذه هي الجلدة التي يراها الرسل خلعةً مقدّسة، ويراها أهل الصحراء سلطةً مهيبةً. وهي في حقيقتها أعظم شأناً من خلعة القداسة، ومن سطوة السلطة.

هذه هي القطعة السريّة المخبّأة في لفافة الجلد التي يسعى الرسول لسلخ جلده ليستردّها منه كما سلخت جلود سلف كثيرين لتزداد العطية وزناً والخلعة سمكاً. بلى. سيسلخ زبانية الرسول جلده كما تسلخ الشاة بعد ذبحها مع فارق غريب هو أن الشاة لا تُسلخ إلاّ بعد الذبح، أمّا هو فعليه أن يحتمل سلخاً بلا ذبح! بلى، بلى. الرسول سيعود خائباً، وسوف لن يجد حرجاً في أن يجاهر برفض الالتماس. إنه يعرف ذلك سلفاً حتّى أنه لم يستمهله القصاص إلاّ يأساً، وربّما لكسب وقتٍ مكرّس للبحث عن مخرج من المأزق لأنه لا ينوي أن يذهب طوعاً ليقدّم رقبته كالخروف للجلاّد كي يجرّ عليها نصله. بل كان الأمر سيكون أهون لو

اقتضى الأمر تقديم الرقبة، لأن عليه أن يخضع لقصاص يتوجّب عليه بمقتضاه أن يرضى باستقطاع جلده مع استبقاء الرقبة عكس الشاة التي لا يهمّها أن تُسلخ شريطة أن تُذبح قبل أن تُسلخ!

ضاق به المكان، وحُلْمُ اليقظة تحوّل كابوس يقظة. فَزَّ واقفاً. خرج. خرج وحيداً بلا عسس، بلا أعوان، بلا خدم، فوجد الواحة غارقة في الظلمة والصمت. سار عبر الأزقة المتربة المتعرّجة حتى أشرف على باب «تارجا»، ولكنه انحرف في مسيره يميناً نحو بوابة «قدموس». في السبيل الذي يخترق الحقول استسلم للوساوس. تفكّر أنه الوحيد الذي لم يخطر له استنكار الموت على بال يوماً، ولكنه لم يتخيّل أيضاً أن يفقد بدناً ورثه عن الأسلاف قبل أن يموت لا بعد أن يموت. ففي تجريد البدن من جلدة البدن إهانة أسوأ من السلخ وأسوأ من الموت. بل هي أسوأ من الموت لا لشيء إلاّ لأنها عمل قبيح، وفوق ذلك شرّير يتمثّل في السلخ! يأتي الزبانية الأشدّاء المسبوكين من معدن الحديد الكريه كي ينتزعوا الجلدة انتزاعاً. يقومون بانتزاعها غصباً، وربما بحيلةٍ من حيل هؤلاء الدهاة التي تخفّف الوجع، ولكنها لا تعصم البدن من النزيف. هنا، في هذا النزيف، تكمن البليّة. في النزيف كما تنزف الشاة تتجلّى الإهانة. تتجلّى الميتة المهينة التي تفوق في بشاعتها الميتة الحقيقية. مخلوق كان منذ قليل إنساناً، كان سلطاناً، كان مولىً مجبولاً برسالة، يجد نفسه مطروحاً أرضاً

كالبهيمة وسكاكين الزبانية تتجوّل في جسده. وإذا لم تكن تلك الأنصال سكاكيناً فلن تكون يقيناً سوى أيدي الزبانية التي تفوق أنصال السكاكين قوّةً أو حيلةً أو طغياناً. يتكأكأ الزبانية حوله لا ليكتموا أنفاسه مرّةً واحدة كما يجب أن يكون، ولكنّهم يتظاهرون بتأدية الديْن الذي حملوه طويلاً على عاتقهم والقائل بأنهم لا يريدون، كما لم يريدوا يوماً، أن يأخذوا روح أحد، لم يريدوا أن يهلكوا بعملهم الوحشيّ أحداً، ولكنهم جاءوا ليستردّوا حاجتهم. جاءوا ليستردّوا حاجتهم غصباً، لأنها العطيّة الوحيدة في الصحراء التي لا تُسترجع إلاّ باستخدام العنف. ولو حدث واستردّت مرّة طوعاً لفقدت حقيقتها، لكفّت عن أن تكون خلعةً!

ولكن هذه الحجّة لا تجلب للضحية العزاء، لأن البليّة لم تكن يوماً في أن تموت، ولكن البليّة في أن تنزف كالشاة قبل أن تلفظ الأنفاس لتموت. وحتى إذا أفلح أهل الدهاء ووجدوا ترياقاً لإيقاف النزيف، فإن هذه النجاة لا تجير عادةً من الموت، ولكنها تنقلب، في عرف الصحراء، حياة العار الأسوأ ألف مرّة من الموت!

وهو ما يعني أن مراسم استخلاص الجلدة من الجلدة غايتها التعبير عن الإهانة قبل أن تتمثّل في استرداد الهبة، لأن الرسل عليمون بسليقة الصحراويين الذين يفضّلون الموت على أن يحيوا أذلاّء في الوصيّة القديمة القائلة: «تستطيع أن تقتلني ولكن ليس

من حقّك أن تذلّني!»، أو في الوصيّة الأخرى القائلة: «اقتلني شريطة ألاّ تقطع رأسي، أو تمثّل بجثّتي!». والخلعة التي التجأ إليها طلباً للأمان ها هي تخذله فتقوده إلى اللعنة الأسوأ من لعنة بيع القرينة في السوق، والأرذل من خطيئة الانتقام من الأعداء.
فهل يظنّ هذا استكباراً، أم انتصاراً لرسالة اسمها الإنسان؟

9 ـ الجسد

لم يشأ أن يباغته الرسول في طريق عودته إلى الواحة فنصَّبَ حرساً على مشارف الواحة من جهاتها الأربع برغم يقينه بأن الرسول لم يقبل يوماً على الواحة إلاّ نزولاً من قمّة جبل «هانكاكا» المعلّقة في أبعد سماء. والرسول لم يخن رسالته هذه المرّة أيضاً لأن أحد الأحراس أقبل عليه في ظهيرة أحد الأيام ليخبره بنزول الرسول من القمّة في طريقه إلى الواحة. حدّق في عين الحارس طويلاً قبل أن يستفهم عمّا إذا كان الرسول قد أقبل وحيداً أم مصحوباً برفقاء فأجاب:

ـ الرسول أقبل مصحوباً بثلاثة رجال يا مولاي، ولكني لا أستطيع أن أجزم عمّا إذا كان هؤلاء العمالقة للرسول رفقاء!

تفحّصه بفضول كأنه يحذّره خِفْيَةً أن يخفي عنه شيئاً. تساءل:

ـ هل قلتَ أن عمالقةً يرافقون الرسول؟

تمهّل الحارس لحظة قبل أن يجيب:

ـ الرسول يبدو بينهم قزماً يا مولاي!

همهم بعبارة مبهمة. خاطب الحارس كأنه يخاطب نفسه:

ـ قاماتهم ماردة، أليس كذلك؟

وافقه الحارس بإيماءة فأضاف:

ـ وأبدانهم محبوكة، أليس كذلك؟

وافقه الحارس بهزّتين من رأسه فغمغم في وجهه من جديد:

ـ في عيونهم سيماء الجنّ، أليس كذلك؟

سكت الحارس. ولكنّه مضى يتشبّث ببصره بسيّده حائراً كأنه ينتظر منه رسالةً لا استجواباً. بعد قليل بدأ يرتجف لسرّ مجهول ربّما شكّاً في مسلك مولاه وربّما خوفاً من سيرة الجنّ. أمّا «أساناي» فأشاح عنه بوجهه وأومأ للأعوان يأمرهم أن يعدّوا العدّة لاستقبال رسول الزعيم بكل ما يستحقّ من مراسم الإكبار، ثم صرفهم ليستدعي الحاجب. اجتمع به في الخلوة طويلاً قبل أن يخرج من هناك ليعلن أنه قرّر الخروج لاستقبال الرسول بنفسه. أعدّ له الأعوان المطيّة فخرج من باب «تارجا» بعد ظهيرة ذلك اليوم مشيعاً بزغاريد النساء ومصحوباً بقافلة من الخلق: أعوان وأحراس وخدم وعدد من أكابر الواحة وحتّى فريق الشعراء.

سار صاحب الخلعة بقافلته طوال ما تبقّى من النهار، ولكنه لم ينعم بلقاء الرسول إلاّ مع حلول المغيب. ولكن الغيهب لم يحل دون الاحتكام إلى مراسم الإكبار. فقد تغنّى الشعراء بالملاحم التي تلهج بمديح الزعيم وتثني على رسله العظماء. كما عبّر الخطباء عن بهجتهم بشرف لقاء إنسانٍ اصطفته الأقدار ليكون

رسولاً لجلالة الزعيم. ثم جاء دور الأكابر فاستعاروا ألسنة الأسلاف ليتحدّثوا عن معنى أن تستقبل واحة من الواحات، أو قبيلة من القبائل، رسولاً من رسل الزعيم. قالوا أن هذا الحدث كان في تاريخ الصحراء دائماً منعطفاً في حياة الواحة أو القبيلة، وسوف يختطّه الزمان اليوم أيضاً ليصير علامةً فارقةً في السِّيَر.

أنصت «أساناي» لهذا الهراء ببسمة ساخرة لم يبذل لإخفائها جهداً، ثم أوقف الخطباء بإشارة من يده وفزّ واقفاً ليختلي بالرسول على انفراد.

سارا صامتين عبر خلاء عارٍ من النّبوت، مغمورٍ بعتمة المساء. بعد لحظات التحق بهما جنيّان من رفقاء الرسول، ولكنهما تجنّبا الاقتراب منهما فسارا وراءهما مسافة خطوات.

التفت نحوهما «أساناي» مراراً ليعبّر بهذا المسلك عن دهشته، ولكن الرسول التزم الصمت فآثر أن يتجاهل الأمر أيضاً.

ابتسم بغموض قبل أن يسأل:

ـ لا أعرف كيف سأعبّر لمولاي عن امتناني فيما لو تفضّل وأجابني على سؤال.

أجاب الرسول بصوته الطفولي الغريب الذي يشبه لحون الغناء:

ـ رسالة الرسول أن يجيب على الأسئلة لا أن يلقي على الأسماع الأسئلة!

دحرج «أساناي» بنعله حجارة السبيل. تطلّع إلى الأفق المحتضر بفعل هجمة الظلام. قال:

- كم مريد خلعةٍ استطاع أن يحيا بعد أن انتزع الرسل خلعة الزعيم عن بدنه؟

تغنّى الرسول بلحنه الغريب:

- ورثنا في الوصايا أن المريدين انقسموا دوماً إلى جناحين: جناح استردّت منهم الخلعة فهلكوا نزفاً، وجناح آخر استردّت منهم الخلعة فهلكوا حزناً!

ساد صمت مريب. ارتطام نعليهما بحجارة السبيل استباح حرم السكون الصحراوي المريب. السكون الصحراوي النّهم الذي يلتهم القول ليحيله إلى خواء. ليحيله إلى عدم. السكون الصحراوي المريب يترجم كل شيء إلى لا شيء. يترجم كل عبارة إلى استعارة، كما تترجم أمّه الصحراء كل بائنة إلى باطنة.

سأل أساناي:

- إذا تجاسرتُ فسألت مولاي عن أيّ الفريقين يرى أنهما في هذه المحنة أنبل فبماذا سيجيب؟

أجاب الرسول بلغة اللحون:

- من يهلك حزناً على فراق دوماً أنبل شأناً من مريد يهلك نزفاً على فَقْد!

ـ هل تريد، يا مولاي، أن تقول أن الفراق أنبل لأنه شهادة روح، والنزف أرذل لأنه برهان بدن؟

ـ أردت أن أقول أن الذين هلكوا في الماضي، ويهلكون اليوم، وسوف يهلكوا في المستقبل بسبب استرداد الخلعة، انقسموا جناحين تلبيةً لنداء مواهبهم. فالفريق الذي يهلك حزناً على فراق العطيّة لا يلقى هذا المصير حسرةً على فقدان نعمة، ولكنه يموت حنيناً لانقطاع الحبل الذي يصله بالزعيم. إنهم يموتون حزناً على فراق الزعيم الذي وهب الخلعة وليس حزناً على فراق الخلعة. ولهذا فإن الخلعة لا تُنزع من أبدانهم، ولكنها تستعاد من أيديهم، عكس الفريق الثاني الذي تُنزع من جسده نزعاً فيموت ألماً، لا حزناً!

أنصت «أساناي» لوقع خطوات الجنيّان اللذان يقتفيان أثرهما كأنهما ظلاّن لهما. قال:

ـ حسناً، يا مولاي، حسناً. ما أردت أن أعرفه هو عمّا إذا حدثت في سيرة الخلعة أعجوبة استطاع أن يحيا بموجبها المريد بعد أن انتزع أعوان الرسل الخلعة المبثوثة في جسده!

سكت الرسول لحظة. سكت كأنه أدرك أن بيانه بلا جدوى لأن الصحراء تسمّيت فتمحو كلّ قول بسكونها، كما تسميت في محو كل موجود بخلودها.

قال الرسول:

ـ حدثت هذه الأعجوبة أيضاً كما ورثنا في الوصايا، ولكن المدهش في الأمر ليس أن تحدث هذه الأعجوبة، ولكن في سرّ حدوثها!

استفهم آساناي دون أن يخفي لهفته:

ـ هل تحدّث مولانا عن سرّ حدوث؟

ـ القلَّة التي فازت بالحياة بعد انفصال الخلعة عن جسدها لم تفز بالحياة حبّاً في الحياة، ولكن حبّاً في الخلعة!

هتف أساناي:

ـ حبّاً في الخلعة؟

ـ أعني أن هذه الفئة على قلّتها وُهبت لها الحياة أملاً في استرداد الخلعة يوماً لا رغبةً في حياة تخلو من خلعة!

سكت أساناي طويلاً فسكت الرسول أيضاً. سكتت الصحراء أيضاً كأنها تتنصّت. كأنها تنهمك في تدبير مكيدة تستحوذ بها على النبوءة. لأن الأجيال أكّدت أن كل النبوءات لا تستخرج إلاّ من بطن الصحراء كما تستخرج من جوفها كل الكنوز الدنيوية. لأن النبوءة ليست سوى الكنز إذا تبدّد وفقد هويّته السفلية. كما أن الكنز ليس سوى نبوءة تجسّدت بعد أن فقدت هويّتها الخفيّة.

قال الرسول:

ـ هذا يعني أن الخلعة في يقينهم ليست خلعة، ولكنها الحياة!

ردّد أساناي غائباً:

ـ بلى. الخلعة لم تكن يوماً خلعة. الخلعة كانت دائماً هي الحياة، لأن الحياة ما هي إلاّ طريدة!

انتظر الرسول ومضة ثم سأل:

ـ آمل أن تكون من أهل الحزن، لا من أهل النزف!

«أساناي» لم يجب. قال بعد خطوات:

ـ أردت أن أُسمع مولاي رواية.

ـ رواية؟!

ـ رواية تتحدّث عن حقيقة الجسد فتقول أن لهذا الكيان الملفّق من لحم وعظم ودم يرجع الفضل في قيام كل كيان سواء أكان معبداً لصلاة، أو بنياناً لحياة!

قال الرسول:

ـ لم أسمع بهذه السيرة من قبل.

تجاهل «أساناي» العبارة فأضاف:

ـ يُروى أن الزعيم أُصيب في أحد الأيام بداء مجهول لم يجد له الكهنة ترياقاً. حدث ذلك في ذلك الزمان البعيد الذي كان فيه الزعيم ما زال حريصاً على تولّي أمر القبيلة الصحراوية بنفسه، ولم يوكل أمرها للأخيار بعد. كان الدّاء أشبه بالسويداء ولكنه لم يكن

سويداء، كما قيل أنه جنس من أجناس الحزن، ولكنه كان داءا أسوأ مائة مرّة من الحزن. وقد عانده الحكماء طويلاً ولكنهم أخفقوا في مداواته جميعاً. يئسوا فاستيقظوا في أحد الأيام ليجدوا أن الزعيم قد اختفى من ربوع القبيلة. اختفى دون أن يترك أثراً يمكن أن يدلّ عليه، ودون أن يخلّف وراءه وصيّة يمكنهم أن يستضيئوا بها. استشعروا الضياع، ولكن جهود بحثهم لم تسفر عن شيء. عادوا إلى خباء الزعيم وأقاموا له في مكان الخباء ضريحاً. لم يكن ذلك الضريح في البداية سوى كتلة أحجار مختلفة في الحجم، ولكنه كان كافياً ليذهبوا إليه عند الحاجة ليستلهموا منه النبوءات. مع مرور الأيام وتتابع الأجيال رأى الكهنة تحويل كوم الحجارة إلى بنيان امتناناً منهم للزعيم على النبوآت، وقيل في وصيّة أخرى أنهم فعلوا ذلك استجابةً لنبوءة تلقّوها وحياً من صاحب الضريح نفسه. شيّدت الأيدي بنياناً مهيباً تركيباً من أنبل الحجارة ليتخذه الكهنة مكاناً لتلاوة الصلوات أيضاً بعد أن كان مكاناً لتلقّي النبوءات. وعلّ المدهش حقّاً هو تحوّل هذا البنيان إلى وتدٍ لقبيلة لم تعرف يوماً سوى حياة الترحال، فركنت إلى المعبد مع مرور الأيام وتوالي الأجيال. لم يمضِ زمن طويل حتى تطاولوا في البنيان أيضاً فوجدت القبيلة نفسها تسكن بيوتاً ملفّقة من حجارة بعد أن كانت تسكن الأخبية المركّبة من جلود الأنعام. تكاثرت الأبنية واصطفّت الشوارع، واجتمع الناس في

ساحات سمّوها أسواقاً، ولم يمضِ زمن طويل حتّى أقبلت عليهم قوافل قبائل أخرى بالبضائع من المجهول، فتنكّرت الأبنية المبعثرة لاسمها لتستعير اسماً آخر ما زلنا نردّده إلى اليوم وهو: الواحة!

سكت «أساناي» فتساءل الرسول:

ـ ماذا تريد أن تقول بهذه الأحجية؟

ـ الرواية يا مولاي رسالة مديح لإكبار مولانا الزعيم الذي أَبَتْ عظمته إلاّ أن تحوّل حتى الأثر إلى علّة لا لقيام المعابد وحدها، ولكن لنشوء الواحات أيضاً. فكيف إذا عثر القوم على رفات عظامه التي نجدّف في حقّها اليوم فنراها رميماً في رميم؟!

توقّف الرسول فتوقّف «أساناي» أيضاً. وقف الرسول مع صاحب الخلعة وجهاً لوجه فرأى تحت ضوء النجوم ألقاً موجعاً في عينيه. تساءل الرسول همساً:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

تلاحقت الأنفاس في صدر «أساناي»، ولكنه لم يلتفت إلى الوراء لكي يتحاشى الجنّيين اللذين استشعر أنفاسهما خلف ظهره. حشرج في أذن الرسول:

ـ لست أنا من يقول يا مولاي، ولكن وصيّة الأجيال هي التي تقول أن هذا الجسد الذي نستهين به هو الذي خلق الدنيا وحقن الصحراء بلغز الحياة، وليس اللغز الآخر الذي يروق للكهنة أن يخلعوا عليه لقباً غامضاً هو الروح!

سكت الرسول زمناً. قال:

ـ ما زلتُ عاجزاً عن فهم ما تريد أن تقول!

زفر «أساناي» أنفاس العجز أيضاً. قال:

ـ أرجو ألاّ يتخيّل مولاي أني أستجدي الرحمة، ولكن العبث بهذا الجسد إهانة في حقّ الزعيم، قبل أن تكون استهانة بعبيد الزعيم!

لحظتها هتف الرسول:

ـ لا أخالك تريدني أن أعود أدراجي لأستصدر لك عفواً من جلالة الزعيم لم يستصدره مرّتين في حقّ مخلوق!

قال «أساناي»:

ـ لا أعرف ما يتوجّب على مولاي أن يفعل، ولكني لا أريد أن يتعرّض بدني للتخريب وأنا ما أزال على قيد الحياة!

قال الرسول بعد صمت:

ـ لو أحببتَ الزعيم أكثر من حبّك لعطية الزعيم لجنّبتَ نفسك أهوال الاسترداد، ولصرتَ من أهل الحزن بدل أهل النزف!

ـ وما أدراني أن حبّ الخلعة لا يمتّ بصلة لحبّ الزعيم!

ـ بل حبّ الخلعة بديل لحبّ الزعيم!

عاد «أساناي» ينفث أنفاس الانفعال. أضاف الرسول:

ـ حبّ الخلعة ليس إنكاراً لحبّ الزعيم فحسب، ولكنه إنكار لحقيقة الزعيم!

ولكن «أساناي» مال على الرسول حتّى كاد أن ينطحه بعمامته، ثمّ نفخ في وجهه أنفاساً كالفحيح قبل أن يقول:

ـ ما أردت أن أقوله أيضاً هو أنّنا نرى المقابر التي تنتشر في هذه الصحراء مجرّد أكوام حجارة تحوى رفاتاً، ولا ندري أن هذه الأكوام من الحجارة ليست مجرّد مدافن لأسلافٍ هلكوا، ولكنها معابد تأوي دنيا الصحراء كلّها: بإنسها وجنّها، بأنعامها وأعشابها، بجودها وجذْبها، ببادياتها وخافياتها، بقسوتها ورحمتها، بدنسها وقداستها، بحكمتها وجنونها، بفنائها وخلودها!

سكت، ولكن أنفاسه ازدادت فحيحاً. تمتم:

ـ القبر ليس قبراً يا مولاي لمجرّد أنه يحوي جسداً بائداً، ولكنّ القبر هو نحن، القبر صحراؤنا في حجمها المصغّر. هل تعرف لماذا؟

لم ينتظر جواباً على سؤاله فأضاف بلهجة من أصيب بنوبة وَجْد:

ـ لأن القبر يحتضن طلسماً اسمه الإنسان حتّى لو كان هذا الإنسان عظماً رميماً. والطلسم، يا مولاي، هو تلك الإشارة التي تحتوي كلّ شيء ولا يحتويها شيء!

سكت «أساناي» في اللحظة التي اكتشف فيها نفسه محاصراً

بالعملاقين المسبوكين من معدن الحديد. ولكنه لم يستسلم. حشرج في وجه الرسول بصوت مخنوق:

ـ إذا كنتَ لا تنوي أن تفهمني فأرجو أن تأمر بكتم أنفاسي قبل أن تأمر بسلخ جلدي!

تراجع الرسول خطوة، خطوتين، قبل أن يجيب:

ـ رسالتي أن أستعيد الخلعة، لا أن أكتم الأنفاس!

همّ بأن يلاحق الرسول، ولكنه وجد نفسه في مواجهة أحد زبانية الرسول.

10 ـ الصفقة

انتظرت الواحة مراسم استرداد الخلعة بفارغ الصبر منذ أقبل صاحب الخلعة على الواحة برفقة وفد الزعيم: تزاحم الخلق في الساحات، وتدافع أهل الفضول إلى الشوارع، وخلت الدور حتّى من النساء والأطفال والأشياخ. الكلّ خرج في ذلك اليوم ليشهد الطقس الرهيب الذي سيضع حدّاً لعهد، ويضع حجر أساس لعهد. كان الظمأ إلى مشاهدة الحدث الذي سيعبّر عن التغيير قد فاق كلّ تصوّر إلى حدّ دفع فيه إلى أسوار الواحة الغرباء والتجّار وأهل الخلاء. الكلّ أقبل لمشاهدة ذلك الحدث الذي ستروي‌ه الأجيال للأجيال، وستعرف تفاصيله الطريق إلى ملاحم الشعراء وحناجر فرسان الغناء، لأنه الحدث الوحيد الذي لا يتكرّر إلاّ مرّة عبر أجيال، وقد لا يتكرّر حتى عبر الأجيال.

انتظرت الجموع داخل الأسوار الليل كلّه، وضاقت الواحة بالخلق فلفظت خلقاً كثيراً خارج الأسوار أيضاً. ولكن مراسم القصاص لم تبدأ حتّى في صباح اليوم التالي لسرّ لم يعلمه أحد. تململ الناس، وارتفعت أصوات كثيرة بعبارات الاحتجاج، ولكن

الأمل في مشاهدة المراسم التاريخية الفظيعة خنق الاستنكار في الصدور، وأمات في الألسن التعبير عن الضيق.

كان يقبل على الخلق في كلّ مرّة مخلوق يدّعي أنه مخوّل من رسول الزعيم فيعتلي المناكب ليطمئن القوم باقتراب الميعاد الذي انتظروه طويلاً، ثمّ يختفي متمتماً بالوصايا التي تروّج لأحجية غامضة هي الصبر، فلا يملك الأنام إلاّ أن يتسلّوا بفكّ طلاسم الأحاجي، أو يقتلوا الوقت بمباريات الأشعار، أو يتسلّوا باستعادة بطولات الأزمنة القديمة. لأن حضور مراسم ذلك القصاص في يقينهم قربان يشتري فساد الحوائج، ويعوّض بور التجارات أو خسارة الثروات، لأنه الصلاة التي لا تتلى إلاّ مرّة واحدة.

في ذلك الوقت كانت الوليمة التي أعدّها «أساناي» إكباراً للضيف الجليل قد انقلبت من وليمة على شرف الضيف إلى وليمة بالضيف! ولم يكن بوسع هذا الداهية أن يحقّق هذه الأعجوبة في حقّ رسول الزعيم لو لم يحكم مكيدته تلك قبل مغادرته لاستقبال الرسول عند حضيض جبل «هانكاكا». كما لم يكن بوسعه أن يتمكّن من الرسول لو لم يُزح من طريقه زبانية الرسول الثلاثة الذين صرعهم بأشدّ سموم الصحراء مفعولاً في الساعات الأولى من بداية الوليمة كما قيل. أمّا الرسول نفسه فقد ألقى به في الأصفاد قبل أن يخضعه لمراسم استجوابٍ طويلٍ ومهين. وقد رَوَى أحد الخدم بعدها تفاصيل تلك الليلة الرهيبة فقال أن مولاه

ترك ضيفه مقيّداً كأي أسير حرب حقير زمناً طويلاً قبل أن يتنازل أخيراً ليلقي في وجهه بسؤال:

ـ إذا كنتم تنوون استرداد هذه الجلدة التي تسمّونها زوراً خلعة جزاء الأراذل كما تقولون فلماذا تخلعونها على أناسٍ أراذل؟

ويؤكّد الراوية أن الشجاعة لم تخذل الرسول لأنه أجاب:

ـ لأن الخلعة لم تُخلق لتخلع على أناسٍ أفاضل، ولكنها خُلقت لتخلع على أراذل!

هبّ في وجهه أساناي:

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً فإن هذه الخلعة ما هي إلاّ قشّة لاستدراج البلهاء، وخدعة في حقّ أهل الصحراء!

أجاب الرسول:

ـ الزعيم يرى أن الخلعة ضرورة لإحلال السكينة في الصحراء.

استنكر صاحب الخلعة:

ـ بل لإحلال البلبلة لا إحلال السكينة، لأن الأزمان برهنت أن استقرار النفوس لم يتزلزل إلا يوم أقبلتم على الأمم الصحراوية الشقيّة بهذه العطيّة الملعونة!

سكت الأسير لحظات قبل أن يجيب:

ـ لم يستنزل عليكم الزعيم عطيّته قبل أن ينحشر الناس في قمقم!

ـ ماذا تريد أن تقول بهذه العبارة الخبيثة؟

ـ أردت أن أقول أن اجتماع الإنسان إلى أخيه الإنسان خطر استوجب حضور طرف ثالث لفضّ النزاع الذي سينشب حتماً بين هذين الاثنين، والخلعة هي هذا الطرف الثالث!

أطلق آساناي ضحكة سخرية. قال:

ـ لا تحاول أن تقنعني بخرافة حسن النوايا، لأن هذا الطرف الثالث الذي تتشدّق بضرورته لفضّ النزاع المفترض، أو فلنقل المزعوم بالأصح، ما هو إلاّ شرك لاستعباد الرقاب لا لتحرير الرقاب.

ولكن الأسير المسكين لم يستسلم فسأل جلاّده بروح التحدّي:

ـ أجبني على سؤال: هل الناموس ضرورة أم هو هراء؟

ـ الناموس لم يكن يوماً هراء، ولكن خلعتكم المشئومة هي التي حوّلت الناموس إلى هراء! هل تدري لماذا؟ لأن الناموس لم يخلقه زعيم من وراء حجابه، ولكن أمّنا الصحراء هي التي خلقت الناموس الذي لم يخذل من لم يخنه أبداً!

سكت آساناي لاهثاً. أضاف:

ـ الخلعة جريمة في حقّ الناموس!

انهمك الرسول لحظتها في قراءة تميمة استنكاراً فأضاف صاحب الخلعة:

ـ بل هي جريمة مدبّرة ضد أهل الصحراء الأشقياء لأن الزمان أثبت أنها ربما كانت أنسب لأن تُخلق لأمم الخفاء، ولكن اليقين أنها كانت بليّةً في حياة أهل الصحراء! هل تدري لماذا؟ لأنها شَرَك لكنز لم يكن لأهل هذه الصحراء النبيلة أن يتنازلوا عنه يوماً. هل تدري ما هو هذا الكنز يا رسول الزور الذي لم يَر كنزاً أعظم شأناً من الخلعة؟ إنّها الحرية يا رسول الزور!

سكت لاهثاً، ولكنه ما لبث أن أضاف:

ـ ما لا يُغتفر في هذه البدعة هو حقيقتها كمكيدة ضد المعبودة الحقيقية التي لم تكن يوماً في ناموس الصحراء غير الحرية، في مقابل معبودٍ مريب لم تسمعه أذن، ولم يره بصر، ولم يخطر ببال إنس، ولكنه برغم ذلك عرف كيف يسخّر رسل الكذب أمثالك كي يقبلوا علينا ليبلبلوا قلوبنا بخلع تبدو في مظهرها تاجاً، في حين تخفي في باطنها سمّاً زعافاً!

حاول الرسول عبثاً أن يتحرّر من قيده، وعندما أخفق حاول أن ينطلق بلسانه، ولكن آساناي استوقفه بإشارة صارمة ليقول:

ـ لقد قدّمتُ لك عرضاً مغرياً عند حذاء جبل «هانكاكا» يقضي بكتم أنفاسي قبل أن تهمّ بنزع جلدي عن جلدي، ولكنك كابرتَ مستنصراً بزبانيتك الأشقياء. أمّا الآن فإنّي أعلن سحب هذا

العرض واستبداله بعرضٍ آخر، أو فلأقل صفقة أخرى، تصلح سبباً وحيداً لتحريرك من الأغلال. فهل تقبل؟

تطلّع إلى الأسير بعينين حمراوين من فرط السّهر والبلبال والجنون. تكلّم الأسير بنبرة فقدت آخر نغم من نغمات اللحون:

ـ ليس لي أن أقبل أو أرفض قبل أن أسمع فحوى العرض.

حدّق فيه آساناي طويلاً بعينيه الجنونيتين. حشرج بصوتٍ منكر:

ـ تتنازل عن الرسالة، وتعترف بحقيقتك كرسولٍ دعيّ لم يكن يوماً سوى صاحب زور إذا شئت أن تستعيد حريّتك مرّة أخرى!

في عين الرسول تألّق إيماء وجع. تكلّم بصوتٍ تعرّى نهائيّاً من نبرة الغناء:

ـ كيف لي أن أنكر الرسالة إذا كانت الرسالة هي سرّ وجودي؟!

توعّده آساناي:

ـ تستطيع أن تتلو هذا الهراء على البلهاء الذين يتزاحمون في الخارج انتظاراً لقصاص الزعيم المزعوم، أمّا هنا فلا سبيل ينجيك من قصاصي سوى الإنكار!

استولى الوجع على سيماء الرسول، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظات. انقشع الوجع وحلّ في العينين إيماء السكينة. قال بلكنة استعادت نصيباً من حلاوة الصوت القديم:

ـ ليتني أستطيع!

زأر آساناي:

ـ أوصيك بأن تتريّث وتذكّر بأن لا خسارة يمكن أن تقارن بخسارة النفس!

ـ صدقت. لا خسارة يمكن أن تقارن بخسارة النفس، ولا خسارة للنفس مثل خيانة رسالة للنفس!

ـ هذا كلام يصلح لتضليل البلهاء في الخارج، وتذكّر أنّك لستَ مضطراً الآن لذرّ الرماد في عيونهم، كما أن الزعيم يحذّر من إلقاء النفس إلى التهلكة كما تقول بعض الوصايا!

ردّد الأسير بتصميم هذه المرّة:

ـ لا أستطيع!

ـ هل هذه كلمتك الأخيرة؟

أومأ الأسير إيجاباً في حين تكلّم آساناي:

ـ يؤسفني أن تخسر الصفقة!

أشار للأعوان فانقضّوا على الأسير. تعلّقت أبصارهم بمولاهم وهم يمسكون بالرسول بين أيديهم كأنه كيس من القشّ. هبّ آساناي وأمرهم بأن يتبعوه بالأسير.

خرج صاحب الخلعة إلى الناس في غسق اليوم التالي. أشرف

عليهم من شرفة داره في الطابق الثاني. انتظر هرجاً ولكنه لم يسمع سوى السكون.

انتظر لحظات قبل أن يخاطب القوم بالقول:

ـ أعرف أنكم انتظرتم أن تجدوني بين أيديكم قرباناً فاغفروا لي إذ أخيّب ظنّكم كما خيبتُ ظنّ الرسول منذ قليل عندما اكتشفت أنه لم يكن رسولاً في يوم من الأيام، ولكنه كان دوماً صاحب زور!

سَرَت في الجموع همهمة مريبة، ولكنها تلاشت ما أن أضاف:

ـ هذا المخلوق اللئيم اعترف لي منذ قليل أنه لم يأتِ رسولاً من زعيم، لأنه لم يحدث في حياته أن رأى الزعيم، كما لم يحظَ في حياته بالمثول بين يدي الزعيم. كما اعترف أنه إنما كان يتلقّى البلاغ من رسول آخر مشبوه الانتماء لأنه لم يكن يوماً سوى شبح من أشباح أهل الخفاء لا أهل الخلاء! فماذا تظنونني فاعل بصاحب الزور؟!

ساعتها علت صيحات الاستنكار في أحد الأركان. تلقفتها حناجر أخرى فرددتها بأصواتٍ أعلى. انتقلت العدوى إلى زحام الجموع فهاجت بالهتافات. ولكن أساناي الذي عرف سرّ الغوغاء لم يستسلم:

ـ إذا كنتم تشكّون فيما أقول فها هو الدّعي أمامي وبوسعكم أن تستجوبوه!

استمرّت البلبلة فانتهز آساناي الفرصة ليضيف:

ـ إذا كنتم تشكّون فلماذا لا تسألون أنفسكم قبل أن أسألكم السؤال الذي يجب إن يُسأل: «مَنْ منكم رأى الزعيم يوماً؟ بل من منّا رأى الزعيم في أي يوم؟!». ما أريده منكم الآن هو اختيار عقلاء لتمثيلكم في مجلس رسالته استجلاء حقيقة هذا الكابوس الذي كتم أنفاس الواحة، بل وأنفاس الصحراء كلّها، منذ أجيالٍ وأجيال. وسترون أن الزعيم لم يكن سوى خرافة بلا أساس ولا صحّة اخترعها هؤلاء الأشقياء الذين انتحلوا لأنفسهم اسم الرسل!

ضجّت الساحات بالصراخ استحساناً، فانتهز آساناي الفرصة مرّة أخرى فتوارى من الشرفة. توارى معه الأعوان أيضاً وهم يحملون الأسير الذي بربر بعبارات غامضة خذله فيها الصوت، ثمّ بدل جهداً يائساً للتحرّر من القيد.

في الخارج تطوّع أحد الهواة المصابين بداء المسّ ليتولّى أمر المجلس. اعتلى مناكب لفيف الأشدّاء وطفق يولول بأسماء الأكابر (أو من حسب أنهم أكابر) بأعلى صوت. وكان على صاحب الاسم أن يلبّي النداء بالخروج من الزحام واعتلاء عرش السوق الحجري الملاصق للجدار حيث اعتاد التجّار أن يبيعوا أو يشتروا الإماء أو العبيد بالمزاد. استجاب للنداء كثيرون، ولكن العدد الختامي الذي وافق عليه الأنام لم يزد على الستة عقلاء سار في مقدمتهم الكاهن آساروف، وكبير التجّار أسوف، والأحدب أسان، وقرينان حميمان آخران هما أمازار وإيزير. أمّا مريد العزلة

إيدبنان فقد اعتذر عن الانضمام إلى العصابة قائلاً أن الحقيقة طليقة بطبيعتها، ولكنها لا تلبث أن تغترب حيثما انعقدت لها المجالس. هذا الانسحاب أثار زوبعة من الجدل في زحام السواد الأعظم بسبب الخلاف حول اختيار خلفٍ للحكيم إيدبنان. ولم يسفر الجدل على النتيجة إلى أن تدخّل أحد الدخلاء الذي أوصى (بعد خطاب طويل في مديح الغرباء الذين يحملون البشارة في أعطافهم) بأن يتمّ اختيار أوّل غريب يقبل على الواحة قبيل حلول المساء ليكون العضو السادس في المجلس.

ويقال أن هذا الدخيل لم يكمل عبارته تلك حتى تبدّى في الأفق أحد الغرباء ممتطياً دابّة مريبة لم تشهد الواحة لها مثيلاً. استوقف الغريب بهيمته الغريبة عند مدخل الواحة، ثمّ عَبَرَ باب «قدموس» ليدخل الساحة من جهة الغرب ملفوفاً بالسواد من قناع رأسه حتّى أخمص النعلين، فما كان من الجموع إلاّ أن انكمشت حول نفسها لتفسح له الطريق. انشطر الزحام شطرين في لمح البصر، فعبر الغريب لا إلى سرادق السوق حيث انتظر أعضاء المجلس، ولكن إلى دار صاحب الخلعة حيث تقرّر أن يلتئم المجلس!

11 ـ المساءلة

قبل أن يلتئم المجلس في دار وليّ الأمر أَجْرَى آساناي على لسان النذير نداءاً يقول: «مَنْ رأى منكم الزعيم يوماً فليأتِ إلى المجلس مدعوماً بالبيّنة!».

التأم المجلس في الدار. جلس الأكابر بملاصقة الجدار على مفارش من أنسجة ملوّنة تعلوها قطع سخيّة من النطوع. في الزاوية المقابلة استلقى الأسير ضئيلاً، هزيلاً، شاحباً ويائساً بعد أن نال منه العطش والعناء والجوع. فوق رأسه وقف أحد العسس. عند الباب أيضاً وقف عسس وانتشر بعض الأعوان. في تلك اللحظة أطلق الأسير أنيناً موجعاً وهو يتطلّع إلى أحد أعضاء المجلس. لم يفهم العقلاء، كما لم يفهم آساناي، سرّ الغموض الذي تألّق في مقلة الرسول وهو يتطلّع إلى حكيم الأغراب الملفوف بأقنعة السواد. تنقّل آساناي بين الرجلين ببصره لحظات قبل أن يلقي السؤال الأوّل في ملحمة الاستجواب:

ـ اعترف في حضرة هذا المجلس بأنّك لم ترَ الزعيم يوماً!

ساد سكون مشحون قبل أن يجيب الأسير:

ـ كي أعرف حقيقة الزعيم لست في حاجة لأن أرى الزعيم!

توعّده آساناي بسبّابته:

ـ أريد أن ألفت انتباهك بأن زمن الهراء قد ولّى، وما عليك إلاّ أن تتعلّم كيف تتكلّم اللغة التي نفهمها إذا شئت أن تنقذ نفسك من التهم الموجهة إليك.

الأسير أضاف كأنه لم يسمع وعيد الجلاّد:

ـ لا يرى بالعين إلاّ العميان!

جعجع آساناي بضحكة. حشرج ساخراً:

ـ هل سمعتم؟ ألم أقل لكم أنّه أفّاق؟ هذا يعني أنّنا كلّنا في هذا المجلس زمرة عميان. جوابك هذا اعتراف صريح بأنّك لم ترَ الزعيم..

قاطعه الرسول:

ـ بل رأيته كما لم يره في هذه الصحراء أحد. رأيته بالإحساس أيضاً إذا كنتَ لا تقنع إلاّ بالإحساس!

ـ رأيته بالإحساس؟

استنكر آساناي ثم أضاف:

ـ بأي إحساس رأيت الزعيم؟

أجاب الأسير بصوتٍ كالهمس:

ـ رأيته بالقلب!

عمّ سكون. تبادل آساناي مع أعضاء المجلس نظرة ذات معنى. عاد يحدّق في عين الأسير. سأل:

ـ هل أنت على يقين أنك رأيته بالقلب؟

تمتم الرسول:

ـ بلى!

مضى يتطلّع إلى الرسول بفضول لجوج قبل أن يتساءل:

ـ كيف يبدو الزعيم عندما رأيته بالحاسّة التي تسمّيها قلباً؟

تردّد الأسير. أغمض عينيه طويلاً حتى ظنّ الكلّ أنه نعس. ثم تغنّى:

ـ لا يبدو مثله شيء!

استولى على المكان سكون أعظم. تبادل آساناي مع الأكابر نظرة قبل أن يلتفت نحو الأسير ليسأل:

ـ ما معنى «لا يبدو مثله شيء»؟!

أجاب الأسير بالنبرة الغنائية ذاتها:

ـ لا يبدو مثله شيء يعني لا يبدو مثله شيء!

حاججه آساناي:

ـ ليس هناك في هذه الصحراء أيّ شيء لا يبدو مثله شيء!

قال الأسير بعناد طفولي:

ـ ولكن الزعيم الذي رأيته لا يبدو مثله شيء!

ـ هل تريد أن تقنعنا بأنه كان يضع في يدك خلعته بنفسه لتخلعها على أخياره في الصحراء؟

تردّد الأسير. اعترف أخيراً:

ـ الزعيم ليس في حاجة لأن يضع الخلعة في يدي بنفسه!

ـ ماذا تعني؟

تردّد الأسير فأضاف الجلاّد:

ـ تريد أن تقول أن الزعيم يستخدم أعواناً كما استخدم أنا هؤلاء الأعوان؟

سكت الأسير مغمض العينين ربّما ألماً، وربما طلباً للجواب. ولكن الجلاّد لم يمهله:

ـ تريد أن تقول أنه كان يوافيك بالخلعة بوسطاء نستطيع أن نسمّيهم رسلاً، وربّما أشباحاً ينتمون إلى سلالات الجنّ؟!

أطلق حكيم الأغراب ضحكة منكرة أدهشت كل أعضاء المجلس، في حين استجاب لها الأسير بانتفاضة عنيفة كنوبة وَجْد وهو يحاول أن ينهض بجسده مستعيناً بمرفقيه. قال وهو يرتجف:

ـ الآن تستطيع أن تضحك ملء شدقيك لأنّك كسبت الرهان الذي خسرته دوماً!

تنقّل آساناي ببصره بينهما حائراً. في المجلس سرت همهمة. تساءل الجلاّد:

ـ هل بينك وبين هذا الغريب خصومة؟

لفظ الرسول زبداً وهو يتلعثم ويرتجّ:

ـ بلى! هذا المخلوق لم يغفر لي رفضي لصفقة عرضها عليّ يوماً يضع بموجبها كنوز الصحراء بين يدي مقابل أن أتبعه!

هتف آساناي بدهشة:

ـ تتبعه؟ إلى أين أرادك أن تتبعه؟

هبّ الأسير بانفعال هدّد بالتحرّر من أصفاده:

ـ أراد أن أتبعه إلى دياره. أراد أن أتبعه إلى أسواقه. أراد أن أتبعه إلى تجارته. أراد أن أتبعه إلى أفران حديده. أراد أن أتبعه إلى دنياكم ودنياه بعد أن أتخلّى عن رسالة طوّقني بها الزعيم!

جعجع آساناي بضحكة سخرية قبل أن يزأر:

ـ تتحدّث عن هذا المخلوق بنعوتٍ تصلح أوصافاً للئيم «وانتهيط»!

زعق الأسير:

ـ ومن تظنّون يكون هذا المخلوق غير «وانتهيط» عليه اللعنة؟!

تزعزع المكان بضحكات مجلجلة. ضحك الجميع بمن فيهم مخلوق الأغراب نفسه. ضحك الجميع بأعلى صوت بمن فيهم الأسير أيضاً. مسح آساناي دموعه قبل أن يضع حدّاً لضحكٍ حذّر منه الناموس ورجمته الوصايا بالمنكر:

ـ لا بدّ أن ننحر قرباناً نفتدي به أنفسنا من شرّ الدموع التي سفحناها ضحكاً!

ثم أضاف:

ـ والآن لم يبقَ إلاّ الاحتكام إلى القرار الذي سيدفن الفتنة ويضع حدّاً لأضحوكة استمرّت طويلاً! فهل فيكم من يشكّ في وقوعنا ضحية الزور طوال هذه الأعوام بعد كلّ ما سمعتموه هنا؟

همهم الأكابر، وعلت أصوات الجدل، ولكن وليّ الأمر تدخّل لحسم الأمر:

ـ من رأى منكم وجوب استنزال القصاص فليهبني يده!

في تلك اللحظة تقدّم من صاحب الخلعة أحد العسس. انحنى فوق رأس مولاه قائلاً:

ـ صاحب الخلوة ينتظر الإذن بالدخول يا مولاي!

تعجّب آساناي:

ـ صاحب الخلوة؟

ـ بلى يا مولاي. رجل يقول أنه صاحب خلوة، وقد جاء تلبيةً لنداء النذير يا مولاي.

في سيماء وليّ الأمر تبدّى الاستنفار. قال:

ـ إليّ به!

انتظر المجلس القادم الجديد بفارغ الصبر. ساد وجوم قبل أن

يدخل الزائر. وقف في المدخل حائراً، ثم خطا نحو صاحب الدار خطوتين ثم توقّف. هتف الكاهن أساروف في نهاية طابور الأكابر:

ـ إيدبنان!

ردّد صاحب الأمر:

ـ هل قلت إيدبنان؟

ثم التفت نحو الزائر ليضيف:

ـ ألستَ أنت من رفض عضوية هذا المجلس؟

استمرّ إيدبنان ينتصب في مواجهة جمع الأكابر بقامته الهزيلة حائراً. أخفى يديه النحيلتين وراء ظهره قبل أن يجيب:

ـ لو قبلتُ عضوية المجلس لما استطعت أن أقف في حضرة المجلس شاهداً لكي أدلي بشهادة!

استنكر آساناي:

ـ تدلي بشهادة الحقّ، أم بشهادة البهتان؟!

ـ بل بشهادة حقّ!

ـ هل تقسم بناموس الأسلاف أنّك رأيت الزعيم؟

أجاب إيدبنان بيقين:

ـ أقسم!

ـ حسناً. كيف تؤكّد أنّك رأيت الزعيم إذا كان صاحب الزعيم نفسه يعترف بأنه لم يره بعين؟

تنقّل إيدبنان ببصره بين الأكابر. توقّف عند حكيم الأغراب لحظات. تبسّم بغموض، ثم أجاب:

ـ قد يحتجب الزعيم عن الصاحب ويتبدّى للحبيب!

ـ للحبيب؟! ها ـ ها ـ ها..

ابتلع آساناي ضحكته الخاوية قبل أن يلتفت لجمع الأكابر:

ـ هل سمعتم ما يقوله هذا الرجل؟ إنّه يدّعي أنّه للزعيم حبيب!

عاد يلتفت نحو إيدبنان المنتصب فوق رأسه. سأل:

ـ هل أنت من أهل الانقطاع؟

أجاب إيدبنان ببراءة:

ـ بل من أهل الوصل لا أهل الانقطاع!

قهقه آساناي بعصبية مرّة أخرى. سأل بلهجة السخرية نفسها:

ـ ألا يحتمل أن تنتمي إلى أهل الخفاء؟

أجاب إيدبنان بروح الطفولة:

ـ أنتمي إلى أهل الخلاء لا إلى أهل الخفاء!

ـ هل تجزم أنّك رأيت الزعيم حقّاً؟

ـ لقد أقسمت.

ـ أعني هل رأيته كما تراني الآن، أم أنّك رأيته بخرافة القلب!

ابتسم إيدبنان بمرارة. أجاب:

ـ رأيته روحاً وجسداً!

حدجه آساناي بشكّ. ازدادت مقلتاه جحوظاً واحمراراً وجنوناً. غمغم:

ـ ألا يحتمل أن تكون قد رأيت جنّاً، أم شبحاً من أشباح أضغاث الأحلام؟

أجاب إيدبنان بيقين:

ـ كلاّ!

ـ ألا يقال أن صاحب الخلوة يرى ما لا يُرى، ويسمع ما لا يُسمع؟

لم يجب إيدبنان. أضاف آساناي:

ـ كيف يبدو الزعيم مجسّداً؟

هنا فرّ إيدبنان ببصره إلى أعلى. أجاب:

ـ هذا سؤال لا أستطيع أن أجيبك عليه!

همهم الأكابر. سأل آساناي:

ـ تدلي بشهادة وترفض أن تجيبني على سؤال في صميم الشهادة؟

ـ أدلي بشهادة وفق النداء الذي جرى على لسان النذير، والنداء لم يتضمّن إشارة في وصف الزعيم!

ـ ولكن النداء اشترط في الرؤية وجود البيّنة!

ـ من أعجزته الحجّة وحده يطلب البيّنة!

همهم الأكابر مرّة أخرى. في عين آساناي تمادى الجنون. صاح:

ـ هل جئتنا لتسخر منّا؟

أجاب إيدبنان ببرود:

ـ بل جئت لأبرهن لكم أن من المضحك أن نفتّش للحقيقة على برهان!

عاد أعضاء المجلس إلى جدلهم. هتف أساناي:

ـ بل لا اعتراف بحقيقة بلا برهان!

ـ الاعتراف بالحقيقة ببراهين خطيئة الإنسان!

ابتسم بحزن في حين التفت آساناي إلى أعضاء المجلس قائلاً:

ـ أظنّ أن الوقت قد حان لطرد هذا الشبح الذي يحاول أن يقنعنا بوجود حقيقة بدون براهين!

تدخّل أساروف من موقعه في طرف المجلس:

ـ مهلاً، يا مولانا، مهلاً. أظنّ أن إيدبنان أراد أن يقول أن الحقيقة..

قاطعه إيدبنان:

ـ أردت أن أقول بأشدّ وضوح أن الحقيقة لا تستسلم للبراهين لأنها خارج اللسان!

استنكر آساناي:

ـ خارج اللسان؟ لا وجود لشيء خارج اللسان. ما لا يجري به اللسان لا وجود له في أي مكان!

أومأ للأعوان فتدافع نحوه الأحراس. صاح:

ـ ألقوا بهذا الشبح إلى القبو، وسوف انظر في أمره بعد أن أفرغ من أمر الأفّاق الذي يقبع في الركن!

تكأكأ العسس على إيدبنان ليجرجروه خارجاً، في حين التفت آساناي إلى أعضاء المحفل قائلاً:

ـ لقد قلت قبل أن يقتحم الشبح مجلسنا أن استنزال القصاص واجب، وعلى من وافقني أن يهبني يده مشيّعةً إلى أعلى!

تبادل أعضاء المحفل النظرات. تململ الأحدب أسان بضيق قبل أن يعلن:

ـ أظنّ أن الرسول بريء من التّهم التي نُسبت إليه. انظروا إلى عينيه!

حدّق فيه آساناي بنظرة ساخرة ثم قال:

ـ ماذا ترى في عيني الأسير أيها الأحدب أسان؟

بحث أسان عن النجدة في عيون رفقاء المجلس، ولكن أحداً منهم لم ينجده باستثناء الكاهن أساروف الذي تحسّس صلعته ليقول:

ـ أسان أراد أن يقول يا مولانا أن الإيماء أحياناً أقوى حجّة من البرهان أو ما يبدو لنا برهاناً!

هيمن الصمت. قال آساناي بلهجة السخرية الممزوجة بالوعيد:

ـ هل يطعن الكاهن في البراهين كما فعل الشبح الذي جثم على صدورنا منذ قليل؟

سكت الكاهن فشيّع كبير التجّار أسوف يده. كانت أوّل يد ترتفع في المجلس لتضع حدّاً للجدل. ظلّت يد أسوف مشيّعة إلى أعلى. ظلّت تنتصب فوق رأس صاحبها وحيدةً، مسبوكةً بفضل الترف الذي أسبغته عليها حرفة التجارة!

هتف آساناي بلهجة تكتم غضبةً:

ـ هل يُعقل أن..

سكت. سكت فجأة لأنه أبصر ارتفاع أيدٍ أخرى. ارتفعت يد أمازار، ثم.. ثمّ تبعتها يد قرينه إيزير، في حين تخلّفت يد الكاهن أساروف، ويد الأحدب، ويد.. حكيم الأغراب الملفوف بالسواد والصمت والغموض. هتف آساناي:

ـ مرحى! مرحى! ولكن.. ولكن هل يُعقل أن يخيب ظنّنا في حكيم الأغراب؟

تشبّث الغريب بالصمت في الوقت الذي التفت فيه آساناي إلى أسيره الشقيّ قائلاً:

ـ ها أنت تقدّم للقوم برهاناً آخر على انتمائك إلى سلالة الزور بعد أن شككت في هويّة الرجل مدعياً أنه اللئيم «وانتهيط»!

تلوّى الأسير. أطلق أنيناً قاسياً. صرخ:

ـ بل هذا دليل آخر على حقيقته! لأنه لم يمنع يده إلاّ بعد أن ضمن أربعة أيدي مقابل ثلاثة أيدي!

ـ ولكن الأيدي التي قضت بإدانتك كانت ثلاثة مقابل ثلاثة!

أطلق الأسير ضحكة مريرة. قال:

ـ بامتناعه فاز من المجلس بشهادة براءة، ولم يكن ليمنع يده عن إدانتي لو لم يضمن يدك أنت التي سترجّح الكفّة في كل الأحوال!

12 ـ الضحيّة

وجد الرسول نفسه في قبوٍ تحت الأرض تدبّ في أرجائه مخلوقات مشئومة في عرف أهل الصحراء هي الأرانب. كانت تجوس في ظلمات المكان الليل كلّه، تدق الأرض بأرجلها، وتطلق أصواتاً مكتومة، ولكنها كئيبة كأنها نبوءات سوء.

أنصت للسكون في الخارج طويلاً فغزا النعاس مقلتيه. خيّل له أنه رأى رؤيا في تلك الغفوة، ولكن الهرج في المكان أيقظه نهائياً. أمامه انتصب آساناي كأنه شبح في حين تبدّى خلفه العسس تحت ضوء نار السراج الذي أمسك به أحدهم.

سأل جلاّده صادقاً:

ـ هل حانت ساعة الوداع؟

ولكن الجلاّد لم يجب على السؤال. أقعى في مواجهته صامتاً. تطلّع إليه طويلاً. قال أخيراً:

ـ أنت من اختار هذا المصير!

زفر ثم أضاف:

ـ لو قبلتَ رجائي فأمرت بكتم أنفاسي قبل أن تسترد الخلعة من جسدي لجنّبتني إثماً وأنقذتَ نفسك من هذا المصير!

ابتسم الأسير بحزن. قال:

ـ أن ألقى مصيراً هو قدري أهون عندي من حياة أخون فيها رسالتي!

ـ أعرف أنّك ستتشبّث بالخرافة القديمة: الرسالة هي الحياة، برغم أنّك تعلم عدم وجود بديل لهذه الحياة.

استنكر الأسير:

ـ أتظنّني أكابر؟

ـ بالطبع تكابر. رسل الزعيم سلالة مكابرة. هذا ما ورثناه في الوصايا.

ـ كل من ألقت الأقدار على منكبيه وزراً لا طاقة للناس به يبدو في نظر الناس مكابراً!

رمقه آساناي بحزن. قال:

ـ لا أحد يعرف لماذا تهفون لتصيروا ضحايا!

أضاف بعد ومضة:

ـ هل هو ظمأ إلى البطولة، أم طمع في الخلود؟

أجاب الرسول باسماً:

ـ كل من احترف الحقيقة فهو ضحية شاء أم أَبى!

ردّد آساناي بصوت الحسرة:

ـ الحقيقة! الحقيقة! لا أعرف لماذا تنتابني القشعريرة كلّما سمعت كلمة حقيقة!

قال الرسول:

ـ هذا بسبب الإثم!

استنكر آساناي:

ـ أيّ إثم؟

أجاب الرسول بهدوء:

ـ ألم نتفق يوماً بأن حبّ الخلعة إثم؟

ـ إذا كان حبّ الخلعة إثم فلماذا سمّم بها الزعيم حياتنا؟

ابتسم الرسول. أجاب:

ـ لأنها ضرورة، ولكنها ضرورة مشروطة!

ـ مشروطة؟

ـ مشروطة بحبّ من وهبها لا بحبّها!

سكت آساناي لحظة. قال:

ـ إذا كانت الخلعة تغري مريديها بامتلاكها فلماذا لا تكون هي الخطيئة لا نحن؟

ـ ها أنت تقترب من معقل الحقيقة في شأن الخلعة: نستطيع

أن نقول أن الخلعة ليست هي الخطيئة، ولكن الخطيئة في امتلاك الخلعة، أو فلنقل أن الخطيئة في احتكار الخلعة!

تأوّه آساناي بوجع. قال:

ـ الخواء هو السبب في كل الأحوال.

تعجّب الرسول:

ـ الخواء؟

ـ بلى. ما ذنب إنسان هذه الصحراء إذا كان قد وجد نفسه بلا معنى إلى حدّ لا يجد ما يفعله بنفسه غير أن يتخلّى عن نفسه، أن يغترب عن نفسه بإبداع ضروب اللهو المضحكة؟ ما ذنب الإنسان إذا فتّش عن طريدة وهو الذي وجد نفسه طريداً في هذه الصحراء؟

ـ لا خلاص له بالطرائد. خلاص الإنسان بالتأمّل!

ـ هل قلت التأمّل!

ـ أنتم تسمّون ذلك صلاة، وأنا أسمّي ذلك تأمّلاً!

تضاحك آساناي بتهكّم. تساءل:

ـ مأساتكم أنتم معشر الرسل أنكم تحسنون الظنّ كثيراً بهذا الكائن إذا كنتم تظنّون حقّاً أن الصلاة (أو ما تسمّيه تأمّلاً) يصلح بديلاً للطرائد!

حاجج الرسول:

ـ في كل الأحوال هو أهون من الطرائد التي تؤدّي إلى الامتلاك. التي تؤدي إلى خطيئة اسمها الامتلاك!

ـ إيّاك أن تحسب أنّك أقنعتني!

ـ لا أحاول أن أقنع أحداً، بل أسمح لنفسي أحياناً أن أتولّى الدفاع عن نفسي!

ابتسم آساناي:

ـ أنت لم تحسن الدفاع عن نفسك يوماً، والدليل دفاعك عن نفسك البارحة!

ـ هذا قدر الرسل.

ساد بينهما صمت. في الزاوية أطلقت الأرانب بصوتها المكتوم نبوءة. قال آساناي:

ـ أنت لا تدري كم يحزنني فراقك!

ـ يسرّني أن أسمع منك اعترافاً كهذا!

في عين آساناي تألق وميض مجهول. قال:

ـ أنت لا تدري أن الجلاّد يحبّ ضحيته بقدْرٍ يفوق كراهة الضحيّة لجلاّدها!

ابتسم الرسول بغموض. قال:

ـ توجد ضحايا تحبّ جلاّديها أكثر من حبّ جلاديها لها.

ـ تلك هي ملّة الرسل!

ساد سكون. من كوّة في القبو تبدّى قبس السَّحَر. قال الرسول:

ـ بفضلك أنت سأتحرّر من خوف الموت، ولكنّك لن تتحرّر من الموت بفضلي أنا. هذا يؤسفني!

استفهم الجلاد بإيماءة فأوضح الأسير:

ـ الضحية تموت مرّة بفضل الجلاّد، لأن ميتة المرّة هي التي تحرّر من الموت ألف مرّة. أمّا الجلاّد فيموت كل يوم مراراً، لأن الخوف من الموت هو الموت!

ـ الخوف من الموت؟

ـ أنت لن تطمع بعد اليوم أن تحيا بين أناسٍ يخافونك دون أن تخافهم!

سكت آساناي طويلاً. قال أخيراً:

ـ سأحاكي في عملي عمل الزعيم، فأتولّى أمرهم من وراء حجاب!

تطلّع الأسير إلى جلاّده باسماً. قال:

ـ في محاكاة الزعيم دائماً مجازفة، لأن من يحتجب بستور الأبدية ليس كمن يحتجب بستور الدنيا!

ساد صمت. تبادلت الضحية مع الجلاّد نظرة طويلة. كانت دهشة الرسول عظيمة عندما أبصر في عيني آساناي دموعاً. قال آساناي:

ـ لا أريد أن نفترق وفي قلبك شكّ بشأن حبّي لجلالة الزعيم!

طأطأ الأسير فأضاف الجلاّد:

ـ لم يؤمن مخلوق في هذه الصحراء بوجود الزعيم كما آمنت، فهل تصدّقني؟!

في عين الرسول تألق بلل أيضاً. تمتم:

ـ أعرف!

استعجب آساناي:

ـ حقّاً؟ ظننت أنك صدقت خرافة إنكاري للزعيم كما صدّق الغوغاء وكما صدّق أعضاء المجلس البلهاء!

هبَّ واقفاً. تطلّع إلى الأسير المكوّم عند قدميه مثل كومٍ من قشّ. غمغم:

ـ اغفر لي!

قال الرسول:

ـ لا يجب أن تشكّ في غفراني أبداً!

قال آساناي:

ـ أدري أن الضحية تغفر لجلاّدها، ولكن الجلاّد لا يغفر لضحيته أبداً!

تكلّم الرسول:

ـ هذا لأن طبيعتنا قَضَتْ بأن نحبّ من أحسنّا إليهم، ولكن من أحسنّا إليهم لا يحبّوننا!

عمّ سكون استباحته الأرانب بأصواتها المنكرة. احتال الأسير على أصفاده لينهض أيضاً. وقف في مواجهة جلاّده صامتاً. تمتم الجلاّد:

ـ سأفتقدك كما لم أفتقد أحداً!

لم يجب الأسير. ظلّ واقفاً يتأمّل الأصفاد التي تطوّق يديه فتبدّى للجلاّد طفلاً. هَمَّ الجلاّد بأن ينصرف، ولكن بدناً هوى أرضاً استوقفه. زحف الرسول على الأرض. احتضن ساقي جلاّده بين ذراعيه. ثم انحنى على نعليه ليقبّل قدميه. تمتم آساناي:

ـ ماذا؟ ضحيّة تقبّل قدم الجلاّد؟

تراجع الأسير إلى الوراء زحفاً حتّى اعترضه الجدار الملطّخ بشظايا حجارةٍ حادّةٍ كأنصال السكاكين. انكمش حول نفسه هناك كالقنفذ، فيما كان الجلاّد يستدير ليخرج كأنه يلوذ بالفرار!

13 ـ الخِلّ

في حضيضٍ يستلقي في حذاء مرتفعٍ تتسلّقه بيوت الواحة، تنتصب نخله سامقة مطوّقة بكوخٍ محبوكٍ من الجريد. في هذه الزريبة المجاورة للحقول عاش أسير آخر أيّاماً كثيرة مع الأغنام منتظراً يوماً يشهد فيه تقرير المصير. لم يستشعر مللاً (كما توقّع سجّانه) لأن صحبة الأغنام لقّنته دروساً بخلت بها عليه الخلوة في الخلوات. كما لم يعرف وحشةً، لأن وجود أعجوبة السماء العارية كان هبة أعظم شأناً من كل هبات الحظوظ لو أدرك آساناي حقيقتها لفضّلها على خلعته نفسها. ولكنه يعترف أن البليّة في الانتظار. البليّة في الإحساس بالانتظار حتى لو لم ينتظر المخلوق شيئاً سوى الانتظار نفسه. ربّما لأن الانتظار يخفي أملاً كاذباً بخلاصٍ كاذب. ربّما لأن الانتظار جنس من أجناس الوسوسة. الوسوسة التي تعِد بأن تفي بالوعد الوحيد الذي يستحقّ الانتظار أزماناً قد تستغرق أجيالاً. الوعد بالحرية! انتظار الحرية هو ما ينتظره السجّان كما ينتظره السّجين. لأن انتظار الحرية هاجس الإنسان، هاجس كلّ إنسان.

في أحد الأيام أقبل عليه السجّان. أقبل عليه بعد أن يئس من

انتظاره فنسيه كما نسي في دنياه أشياء كثيرة برغم أنه لم ينسَ الانتظار، لأن الانتظار في يقينه لم يعد منذ زمن بعيد انتظاراً، ولكنه صار حياة.

أقبل عليه مصحوباً ببطانته، ولكنه استوقف البطانة خارجاً ليدخل عليه وحيداً. وقف فوق رأسه كالشبح. وقف كما يليق بسجّان أن يقف. في عينيه بسمة استعلاء. في عينيه إيماء الغلبة. قال ساخراً:

ـ يسرّني أن أجدك كما استودعتك، لأن صحبة الأغنام كثيراً ما قلبت الرعاة مسوخاً لا تختلف عن الأغنام!

أجابه دون أن يحرّك لاستقباله ساكناً:

ـ أمّا أنا فوجدتُ في صحبة الأنعام تلك الحكمة التي نفقدها بصحبتنا للأنام!

ـ لقد أمرت لك بقبوٍ تجاور فيه أنعاماً أخرى إن كانت سلالة الأرانب في ناموسك أنعاماً، ولكن الأعوان رأوا غير ما رأيت فزجّوا في القبو صديقك الرسول، وأتوا بك إلى زريبة الأغنام.

ابتسم باستخفاف دون أن يتطلع إليه. قال:

ـ لا أعرف أي رسالة تريد أن تلقّننا بهذه الأحاجي الطفولية!

ـ الرسالة أشدّ وضوحاً من زرقة هذه السماء. إنّها تقول أن وليّ أمر هذه الواحة لم يعد منذ اليوم وليّ أمر الواحة، ولكنه البطانة التي تحوم حول وليّ أمر الواحة!

اعتدل الأسير في جلسته. تفقّد يديه المشدودتين بحبل المسد إلى جذع النخلة. تطلّع إلى سجّانه. قال:

ـ هذا فكّ لطلسم الأحجية بأحجية!

أقعى آساناي في مواجهته. قال:

ـ عندما وضع الزعيم خلعته وساماً على صدري صدّقتُ كما لم يصدّق هذه الهبة أحد في تاريخ الصحراء كلّها فاستحققت الفوز بلقب الأبله عن جدارة!

ـ الأبله؟

ـ بلى. الأبله، بل وأكثر بلاهةً من الأبله. وإلاّ ماذا يمكن أن يسمّي إنساناً صدّق أن هذه الدمية التي نسمّيها خلعة يمكن أن تؤهّله لأن يصير خليفةً على أرضٍ لم يملكها الزعيم نفسه ولم يشأ نفسه يوماً أن يصير عليها سلطاناً؟

اكتفى الأسير بالابتسام. تطلّع إلى السماء العارية فتخيّل أنها ازدادت زرقةً وعمقاً ولا مبالاة واغتراباً. قال السجّان:

ـ هرعت كالطفل فرحاً بالدمية. أخرجت من الجوف قلبي وهرعت بين الناس لأقدّمه للناس. فهل تدري ماذا كان موقف هذه البهائم التي ظننت أنها أناس؟

أجاب الأسير دون أن يتخلّى عن سمائه:

ـ ستقول أنها طعنت قلبك أليس كذلك؟

ـ بالطبع طعنت قلبي. لم تكتفِ بطعن القلب، ولكنها دنّسته، ألقت به تحت الأقدام واستباحته. اللعنة على الناس وعلى كل من آمن بخرافة الناس!

أطلق صاحب الخلوة ضحكة استخفاف. قال:

ـ لهذا السبب فعلت بالرسول ما فعلت لتنتقم من الناس. أليس كذلك؟

توعّده آساناي بسبابته قائلاً:

ـ إيّاك أن تحاول إقناعي بأننا نحيا بالحِلْم لا بالانتقام! الانتقام هو الحياة!

ـ لو أطلقنا العنان لتنّين الانتقام لما وُجدت حياة!

ـ هراء! أنت تقول هذا لأن خلوتك الجنونيّة أجارتك من شرور الناس، ولو عشتَ معي في وجار هؤلاء الوحوش لأدركت أن ما تسمّيه حِلماً يسمّى في لغتهم استسلاماً. وما تسمّيه براءةً يرونه بلاهةً، وما تسمّيه عدلاً يرونه ضعفاً، وما تسمّيه شجاعةً يرونه جنوناً.

تنازل السجين عن سمائه ليتطلّع إلى جليسه. سأل:

ـ ألهذا السبب أنكرتني يوماً كما أنكرتني بالأمس في مهزلة المجلس؟

أجاب آساناي بيقين:

ـ مهلاً! مهلاً! إنكاري لك قديماً كان من سليقة أخرى غير إنكاري لك في المجلس. أنكرتك في الزمن القديم دفاعاً عن النفس، وأنكرتك في المجلس لأني لا بدّ أن أفعل ما دمت قد جاهرت بإنكار الزعيم، وبإنكار رسول الزعيم!

ـ هل تقول أنّك أنكرتني في ذلك اليوم البعيد دفاعاً عن النفس؟

ـ بالطبع كان ذلك دفاعاً عن النفس!

سكت الأسير. تبلبل لحظات. استنكر:

ـ أضع رأسي على النطع لافتداء صديق حاقت به بليّة، فلا يجد هذا الصديق ما يفعله بعد انقشاع المحنة إلاّ أن يخذل من افتداه برأسه، ثمّ تسمّي هذا الفعل دفاعاً عن النفس؟

ـ تقول هذا لأنّك لا تريد أن تعترف إلى يومنا هذا بأن الافتداء ليس دَيْناً ولا تضحية ولكنه خيانة لوصايا الناموس الذي يقول: «لا تفتدِ أحداً أبداً!»!

استولى على الأسير انفعال. هتف بحماس مفاجىء:

ـ لقد ظننت أن الخلّ للخلّ روح واحدة في جسدين اثنين!

ـ أنت مدين لي بامتنان لأنّي حررتك من هذا الوهم!

اختنق صوت إيدبنان وهو يصيح:

ـ بلى! الخلّ وهم. الخلّ هو الأكذوبة التي نعزي بها أنفسنا في وجار الوحوش الذي تحدّثت عنه منذ قليل!

سكت آساناي فترنّح إيدبنان كالمجذوب. قال:

ـ لقد أحببتك! لم أكفّ عن محبّتي حتى بعد أن خذلتني في ذلك اليوم المشئوم الذي وضعتَ فيه رقبتي تحت رحمة السفلة! بل لم أكفّ حتى بعد حملة انتقامك التي بدأت بإنكار الزعيم وانتهت بنحر رسول الزعيم. لم أستطع أن أستشفي من هذا الدّاء ولا أحسب أنّي أستطيع أن أُشفى منه حتى لو أمرت الآن بكتم أنفاسي كما كتمت أنفاس الكثيرين دون أن أعرف لماذا؟

ـ أحببتك أيضاً، ولو لم أبادلك حبّاً بحبّ لما أسديت لك معروفاً بما تسمّيه أنت خيانةً!

ـ أسديتَ لي معروفاً؟!

ـ لو لم أخذلك كما تقول لما استجرتَ بالخلوة! فلماذا لا تعترف بأنّي أجرتك من أكذوبة الخلّ كما أجرتك من شرور الناس؟

لم يستسلم إيدبنان:

ـ الخلّ هو الأكذوبة التي لا أريد أن أكذّبها، وشرور الناس هو البليّة التي لا أريد أن أنجو منها!

ـ هراء! لو كنت لا تريد أن تكذّب أكذوبة الخلّ فلماذا تستنكر فعلي الذي دلّل لك على بهتانها، ولو كنت لا تريد أن تنجو من

شرور الناس كما تدّعي فلماذا هربت منهم لتختلي بنفسك في الخلاء؟

ـ استنكر فعلك لأني أحبّ لا لأني أكذّب، واخترت الخلوة لا فراراً من شرور الخلق، ولكن لأخلو إلى ذلك المخلوق في نفسي الذي يحمل في نفسه أجيال المخلوقات.

انحسر كُمّ آساناي عن معصمه فتبدّت الخلعة تحت الثوب الفضفاض كورمٍ خبيث. أخفاها بسحب الثوب على المعصم قبل أن يقول:

ـ يقال أنّك لم تعتكف في الفلوات يوماً إلاّ طمعاً في ملاقاة الزعيم!

ـ لماذا يتوجّب عليّ البحث عن زعيمٍ في الصحراء إذا كنت أحمل زعيمي في قلبي!

أطلق آساناي ضحكة منكرة. هتف:

ـ هذا هو الاعتراف الذي أردت أن أسمعه منك! ها ـ ها ـ ها. . أعترف لك أنّي كدت أنفجر ضاحكاً ساعة مثلتَ أمامي في المجلس لتدّعي أنّك رأيت الزعيم مجسّداً! ها ـ ها ـ ها. . عليك اللعنة!

ابتسم إيدبنان بتسامح. قال:

ـ من عرف الزعيم حقّاً ليس في حاجة لأن يراه مجسّداً!

ـ هـذه شـهـادة تـشـفـع لـشـهـادة الـزور الـتـي شـهـدتَ بـهـا فـي المجلس. ها ـ ها. .

ابتلع آساناي ضحكته. سأل بلهجة أخرى:

ـ لماذا شهدت بالزور في المجلس؟

سكت إيدبنان. طأطأ أرضاً فتبدّى في عين السجّان مخلوقاً بائساً بلا حول ولا قوّة ولا حُجّة. تكلّم إيدبنان دون أن يرفع رأسه عن الأرض المفروشة ببعر الأغنام:

ـ أردت أن. .

قاطعه آساناي بخشونة:

ـ إيّاك أن تقول أنّك فعلت ما فعلت دفاعاً عن رسول الزعيم أو حتى عن الزعيم!

تمتم إيدبنان كأنه يخاطب نفسه:

ـ أردت بهذه الشهادة أن أبرهن على ما لا يُبرهن عليه بشهادة!

عمّ في المربط سكون. في الهواء اشتدّت رائحة الزبل. أحكم آساناي لثامه على فمه قبل أن يطلق ضحكة. قال:

ـ أعـرف أنّك لـم تـقـتـحـم الـمـجـلـس فـي ذلـك الـيـوم لـتـنـقـذ الرسول. .

ـ الرسول ليس في حاجة لكبش فداء، لأن الرسول لم يوجد إلاّ ليكون لنفسه كبش فداء!

ردّد آساناي جواب صاحب الخلوة كأنه يتلو تميمة:

ـ الرسول ليس في حاجة لكبش فداء، لأن الرسول لم يوجد إلاّ ليكون لنفسه كبش فداء. هذا يروق لي، كما يروق لي ما قلته منذ قليل عن الشهادة التي لم تشهد بها إلاّ لتبرهن بها على ما لا برهان عليه! يروقني هذا، وسأحاول أن أحفره على باب بيتي برموز الأبجدية القديمة!

ثم.. ثمّ انتصب واقفاً ليصدر الحكم:

ـ والآن حان ميعاد الفراق. أنت ستختفي من هنا. خليلك الرسول اختفى من الدنيا ليصير لنفسه كبش فداء كما قلت منذ قليل، أمّا أنت فستختفي من الواحة إلى الأبد لتعتزل إلى الأبد. لقد كان قصاصي لعصابة المجلس أقسى من قصاصي الذي استنزلته في حقّ الرسول لأنّي أمرتُ بدفعهم جميعاً إلى المنفى. أمّا أنت فإنّي لا أدفع بك إلى المنفى، ولكني أدفع بك إلى الوطن عندما أقضي بطردك من الواحة. لأن صاحب العزلة وحده يرجع إلى الوطن عندما يذهب إلى المنفى!

سكت لحظات. تطلّع إلى السماء الصافية دوماً. أضاف:

ـ لا مكان في وطن الظلال لمن يدري أن الخلعة ليست خلعة

لأنها لا توهب، لذلك لا تُستعاد، وهي لا تشرك بنفسها أحداً لأنها ليست هبة الزعيم، ولكنها هي الزعيم!

استدار خارجاً فخلفه الأعوان ليفكّوا قيده!

14 ـ الحجاب

قال لضيف الأغراب:

ـ أريد أن أحتجب!

فأوصاه قائلاً:

ـ إذا أردتَ أن تتخذ لنفسك حجاباً من جنسٍ يُعوّل عليه فاستجر بأمّك الأرض!

استنكر يومها:

ـ الأرض؟!

فأجاب صاحب البهيمة المنكرة الذي نزل الواحة في غيهب الغسق ليكون في عصابة المحفل عضواً سادساً في حساب العدد:

ـ لأن كل ما علا الأرض احترق بنور السماء، ولا عاصم من الزوال إلاّ ما تستّر بالأرض!

تذكّر أمر الرسول فحاججه في ذلك اليوم:

ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً فما لي أرى ضريح الرسول ينمو فوق الرابية كلّما أمرتُ بتفريق حجارته كأنّ أهل الخفاء هم الذين

يأتون مرتدين لحاف الظلمات كل ليلة ليشيّدوا بنيانه من جديد على نحوٍ أعظم؟!

أجاب صاحب البهيمة المنكرة الذي اتّهمه الرسول ليلة المحاكمة بالتنكّر في جِرْم سليل أغرابٍ لأنه لم يكن في حقيقة الأمر سوى لئيم الأجيال «وانتهيط»:

ـ الرسول سار إلى المذبح فرِحاً لأنه اختار أن يصير كبش فداء. والناس، كما تروي سيَر الأجيال في وصايا الناموس المفقود، لا بدّ أن تعبد كباش الفداء. أمّا أنت فلا أخالك من فئةٍ تقبل الانتماء إلى حزب أكباش الفداء!

هدهد التراب استبعاداً للشر قبل أن يقول:

ـ أجارتنا الأرض من الانتماء إلى حزب الفداء!

ثم مال نحو جليسه ليهمس في أذنه:

ـ بلغني أنّك أدهى من تطاول في بنيان!

ابتسم ضيف الغرباء. قال بغموض:

ـ أستطيع أن ألفّق لك الحجاب الذي ينطق جمالاً من الحجر الأخرس. أستطيع أن ألفّق لك الحجاب الذي لم تشهد الصحراء لجماله مثيلاً شريطة أن تضع بين يدي ما يتطلّبه حجاب كهذا من مال!

استشعر أساناي يومها غصّة في الحلق. قال بصوتٍ أخفق في أن يخفي خيبته:

ـ لا أخفي عليك أني أعاني ضائقة إذا تعلّق الأمر بالمال.

استنكر الضيف:

ـ تعاني في المال ضائقة وحولك الأسباب التي تورد إلى يدك الأموال؟

ـ لقد أثقلت على الناس بالمكوس، وضاعفت الرسوم على تجارة القوافل، ولكن الجفاف في الصحراء شلّ حركة القوافل، وأباد قطعان الأهالي حتّى أني أيقنت لأوّل مرّة أن الواحات مدينة بحياتها للصحراء وليس العكس كما ظنّنا دائماً.

وافقه صاحب الاغتراب:

ـ بلى. ما لا يعرفه أهل الواحات البلهاء أن رخاء الواحات رهين برخاء الصحراء!

مال آساناي نحو ضيفه ليقول:

ـ لا أخفي عليك أن الأهالي بدأوا يصدّقون خرافة الرسول. لقد بلغ تعاطفهم أخيراً حدّاً جعلهم يروّجون لخرافة تقول أن الجدب في الصحراء ما هو إلاّ قصاص استنزلته السماء بحقّ الخليقة قصاصاً لها على جريمتها ضدّ الرسول!

هوّن عليه صاحب الاغتراب:

ـ الناس لا بدّ أن يقولوا ذلك، لأن سليقتهم تأبى إلاّ أن تبحث عن علامة خفيّة لتأويل كلّ بليّة!

ـ صدقت. يجد الناس في تأويل البلايا عزاءاً!

ولكن الضيف الخفيّ عاد إلى سيرة المال:

ـ فيما يتعلّق بتحصيل المال لا يجب أن تنسى كنز الماء!

تساءل آساناي بذهول:

ـ الماء؟!

أجاب صاحب الاغتراب ببرود:

ـ بلى. الماء! هل هناك في الصحراء كنز أنفس من الماء؟!

شلّت الدهشة لسان مريد الحجاب في حين أضاف مريد الاغتراب:

ـ لا أعرف كيف يكبر الناس سلعاً يمكن الاستغناء عنها فيثقلوا كاهل أصحابها بالمكوس، ثم يتجاهلون كنزاً يجري تحت أقدامهم!

تكلّم مريد الحجاب غائباً:

ـ ولكن ما أعلمه أن استدرار الأموال من رسومٍ على الماء عمل قبيح يجلب النحوس!

ـ هراء!

ـ هذا على الأقل ما ورثناه في وصايا الناموس الضائع!

ـ ترتضون الموت جوعاً عملاً بوصيّة منسيّة منسوبة ربّما زوراً

إلى ناموس ضائع أيضاً. هل في الدنيا غباء يمكن أن يقارن بغباء كهذا؟

سكت مريد الحجاب. سكت طويلاً. تساءل أخيراً:

ـ ألن تلعنني الأجيال إذا خرقت التحريم ووضعت رسوماً على الماء؟!

ـ لعنة الأجيال كما تسمّيها قد تنقلب بمشيئة الزمان مجداً، لأن البطولة من نصيب أولئك الذين خرقوا تحريماً!

تردّد مريد الحجاب مرّة أخرى ممّا أجبر صاحب الاغتراب أن يدفع بحجّة أخرى:

ـ لا أعرف كيف تتحلّى بشجاعة تنهي بها خرافة الرسول، ثم تخذلك الشجاعة في جني ثروات ساقتها الأقدار بين يديك!

تمتم آساناي:

ـ التخلّص من الرسول كان دفاعاً عن النفس!

كتم الغريب ضحكة. قال:

ـ لن تستطيع أن تقنع الغوغاء بهذه الحُجّة!

ـ لا أريد أن أقنع بها الغوغاء، ولكنّي أريد أن أقنعك بها أنت!

أخفى صاحب الاغتراب بسمة غامضة بطرف لثامه. قال:

ـ إذا كنت لا تستطيع أن تقنع بها الدهماء، فهل تستطيع أن تقنعني بها أنا؟!

بحث آساناي عن منفى يخفي فيه ضيقه. ولكنه أخفق فاحتكم إلى ساحة اللسان:

ـ تقول هذا لأنّي لم أحدّثك عن جدلٍ جرى بيني وبينه يوم خرجت لاستقباله في حضيض جبل «هانكاكا»!

استفهم صاحب البهيمة المريبة بإيماءة فأوضح آساناي:

ـ توسّلته أن يكتم أنفاسي قبل أن ينزع خلعتي عن جلدي فقال أن رسالته أن يسترجع الخلعة لا أن يكتم الأنفاس!

قال صاحب البهيمة بصوت غريب:

ـ لو كنتَ مكانه لقلت ذلك أيضاً!

تجاهل مريد الحجاب العبارة، ربّما لأنه لم يسمعها، فأضاف:

ـ لم أجد مفرّاً من أن أنكّل به قبل أن ينكّل بي!

اختلس إليه الغريب نظرة ماكرة، ولكنه لم ينبس. ساد صمت مزموم قبل أن يتكلّم صاحب البهيمة:

ـ آمل أن نكون قد اتفقنا بشأن المال!

تمتم مريد الحجاب:

ـ تراودني بعض الشكوك بشأن الحجاب.

ـ شكوك؟!

سكت آساناي زمناً. كشف عن شكوكه قائلاً:

ـ الحقّ أنّي لا أعرف كيف يكون الحجاب أعجوبة جمال إذا كان مخفياً عن الأنظار!

ابتسم صاحب البهيمة بغموض. قال بلا مبالاة:

ـ هل تستطيع أن تتحدّث عن جمال امرأة إذا تعرّت فتبدّت سوأتها؟!

استنكر آساناي:

ـ أستطيع ساعتها أن أتحدّث عن الشهوة لا عن الجمال!

هلّل صاحب البهيمة بصوت الغلبة:

ـ هل رأيت؟ الجمال جمال ما استتر، فإن تبدّى اغترب!

15 ـ الوَرَم

كان آساناي يحتجب في جوف بيته القديم انتظاراً لاكتمال بناء حجابه الموعود عندما هاجمته في أحد الأيام نوبة. أحسّ بأنفاسه تضيق في صدره، والهواء يتخلّى عن رئتيه، ودوار غريب يزلزل بدنه كلّه. شهق في محاولة لاقتناص الأنفاس، ولكن الصدر لم يلتقط الأنفاس، بل لفظ الأنفاس. تزعزع برجّة عنيفة وهو يحاول الوقوف على قدميه، ولكن البدن خذله فهوى أرضاً. أطلق خواراً غامضاً وهو يتلوّى على البساط فهرع لنجدته الخدم. حملوه فطرحوه في المخدع وهو يرتجف ويشهق ويلفظ زبداً جاحظ العينين.

تولّى كبير الخدم الأمر فأرسل لاستحضار داهية العلل، ثم أمر بفتح الشبّاك على مصراعيه لاستحضار داهية أدهى هو الهواء. ولكن الخدم البلهاء رفضوا الامتثال لهذا الأمر. لحظتها لم يجد كبير الخدم مفرّاً من خرق التحريم الذي سنّه مولاهم منذ توارى عن الأنظار القاضي بإبقاء الشبابيك مغلقة. دخل الهواء من النافذة ما أن كسر كبير الخدم ختم التحريم ليغزو وجه آساناي الموسّم بسيماء الشحوب. عقب دخول الهواء دخل داهية الأسقام أيضاً.

انتفض المصاب بهبّة الهواء، ولكنه لم يستيقظ من غيبته الغريبة إلاّ بتدخّل صاحب الدهاء. فقد أخرج من جرابه صرّة كئيبة فتحها بمهارة ليستخرج مسحوقاً باهتاً من أعشاب مجفّفة حادّة الرائحة. تناول بين أصابعه حفنة من المسحوق ليضعها في أنف المريض. ارتجّ بدن آساناي بهزّة عنيفة قبل أن يستعيد الهواء بشهقة، ففزّ عقب الشهقة جالساً. جال ببصره في المكان غائباً، ثم هوى برأسه على الوسادة مرّة أخرى. تفحّصه داهية العلل مليّاً، ثم تقدّم منه ليستبدل فحص العينين بفحوص اليدين. جال في بدن الرجل المسجّى على الفراش بأصابع نحاسية تبدو شبيهةً بعيدان الحطب من فرط النحول. في مقلتيه المستنفرتين رأى الخدم ظلّ دهشة. تمتم لأوّل مرّة بعبارته التي كرّرها فيما بعد كثيراً:

ـ عجباً!

كان يسرح بأصابعه الخبيرة فوق الخلعة المخفية تحت الثوب دون أن يصدّق الخرافة التي تجري على ألسنة الدهماء والقائلة بأن سترة الجلود يمكن أن تتحوّل جسداً.

ختم الداهية فحوصه بعبارة «عجباً!»، ثم طلب من كبير الخدم إخلاء المكان لأنه يريد أن يتحدّث مع المريض على انفراد. استنكر كبير الخدم التحدّث إلى مولاه قبل أن يستعيد عافيته، ولكن الداهية أسكته بلهجة قاطعة:

ـ سأنتظره حتّى يستعيد عافيته.

حدجه كبير الخدم بشكّ قبل أن يقول:

ـ سأنتظر هنا إلى جوارك!

خرج الخدم وجلس الرجلان متجاورين يواجهان المريض الذي بدأ يهذي وهو يتصبّب عرقاً. من النافذة هبّت نسمة صحراوية شمالية استجاب لها المريض بأنين موجع. مدّ الداهية يده ليستخرج من الجراب صرّة أعشاب أخرى. لوّح بها في وجه كبير الخدم قائلاً:

ـ احتاج إلى كوب ماء!

غاب كبير الخدم لحظات. عاد حاملاً وعاءاً خشبيّاً ملآناً بالماء. تناول الداهية الوعاء وألقى في مائه بمسحوق الأعشاب. التفت إلى كبير الخدم قبل أن يتقدّم من المريض. سأل:

ـ هل أستطيع أن أستعين بك؟

بذلا جهداً عسيراً حتى أفلحا في إرواء المريض بالشراب المرير. عادا يتجاوران عند الجدار. خاطب الداهية جليسه:

ـ هل أستطيع أن أبوح لك بسرّ؟

أجاب كبير الخدم:

ـ أُفضّل ألاّ تفعل إذا كان الأمر يتعلّق بمولاي!

استفهم الداهية بلهجة عجب:

ـ لماذا؟

أجاب كبير الخدم دون أن يرفع بصره عن جسد مولاه:

ـ لأنّي لا أخاف شيئاً كما أخاف الأسرار!

سكت لحظة ثم أضاف:

ـ سيّما إذا كانت هذه الأسرار تتعلّق بمولاي!

ولكن الداهية لم يستسلم:

ـ هل تسمح لي بسؤال؟

ـ تستطيع أن تسأل شريطة ألاّ يتعلّق السؤال بمولاي!

ابتسم الداهية باستخفاف. قال:

ـ لم نجتمع هنا إلاّ لأمرٍ يتعلّق بمولاي ومولاك.

سكت كبير الخدم فأضاف الداهية:

ـ أردت فقط أن أعرف منذ متى أُصيب مولانا بالعلّة!

ـ مولانا لم يعرف العلّة التي تتحدّث عنها قبل اليوم.

ـ أردت أن أستفسر عن الضمور!

تساءل كبير الخدم بلهجة استنكار:

ـ عن أي ضمور تتحدّث؟

ـ يدهشني ألاّ ترى كيف تحوّل جلداً على عظم!

تفحّص كبير الخدم جليسه بذهول. قال بغموض:

ـ هل ترى أنه تحوّل جلداً على عظم حقّاً؟

ـ إنه لم يضمر فحسب، ولكنه تبدّد!

ـ تبدّد؟!

ـ من حقّك ألاّ تلحظ هزال مولانا لأنّك تراه كل يوم، أمّا أنا فلم يقع عليه بصري منذ احتجب!

تململ المريض في رقدته. تأوّه. سحب نفساً عميقاً كأنه لا يصدّق. تمتم:

ـ ماذا يحدث هنا؟

لم يجبه أحد ففتح عينيه. سأل بلكنةٍ لم تخلُ من نبرة وعيد:

ـ مالي أرى في المكان ضياءاً مشبوهاً؟

مَثُل كبير الخدم بين يديه. وقف فوق رأسه. أجاب:

ـ أصابت مولانا نوبة إغماء ففتحت الشباك طلباً للهواء!

تعجّب المريض:

ـ نوبة إغماء؟

قال كبير الخدم:

ـ داهية الأسقام في الركن يريد المثول بين يدي مولاي!

ـ هل تطلّب الأمر استدعاء صاحب الأسقام أيضاً؟

تمتم كبير الخدم:

ـ أجل يا مولاي!

لاحظ الداهية كيف استولى القلق على المريض ما أن علم بوجوده في المكان. تقدّم من المخدع. انحنى بإكبار. توسّل بتسليم:

ـ هل يأذن لي مولاي أن أتحدّث إلى جلالته على انفراد؟

أومأ لكبير الخدم فخرج. تساءل:

ـ هل الأمر بالخطورة التي تستدعي كل هذا التدبير؟

أجاب الداهية:

ـ لا أستطيع أن أجزم قبل أن يجيبني مولاي على بعض الأسئلة!

اغتصب المريض بسمة لكي يداري قلقه. قال:

ـ تستطيع أن تسأل.

تفكّر الداهية لحظة قبل أن يلقي بأول سؤال:

ـ هل عانى مولانا من داء الربو يوماً؟

استنكر المريض:

ـ الربو؟ كلاّ، كلاّ!

ـ هل عرف مولانا نوبة إغماء قبل اليوم؟

ـ هل كانت تلك نوبة إغماء حقّاً؟ كلاّ، كلاّ!

ـ هل عانى مولانا من داء فقدان الشهيّة في الأشهر الماضية؟

عاد المريض ينفي باستنكار ممزوج بالدهشة:

ـ فقدان الشهيّة؟ كلاّ، كلاّ!

سكت الداهية. فرّ ببصره عبر النافذة. سأل:

ـ كيف يفسّر مولانا سرّ الهزال؟

استفسر المريض:

ـ الهزال؟

ـ بالطبع. مولانا هزل كثيراً جدّاً منذ آخر مرّة رأيته فيها.

ـ ها ـ ها.. ظننت أنّي أكثر بدانةً من بغل الحقل!

سكت الداهية. عاد من رحلة البرية عبر النافذة. قال:

ـ هل يأذن لي مولاي بأن أصدقه القول؟

تحامل المريض على نفسه لينهض من ضجعته. استند إلى مسند المخدع. تطلّع إلى الداهية شاحباً. غالب الوهن قبل أن يتمتم:

ـ بالطبع!

ولكن الداهية رأى أن يدخل تعديلاً في العبارة عندما قال:

ـ أعني هل يأمنني مولاي إذا أصدقته القول؟

تلاحقت الأنفاس في صدر المريض. تمادت سيماء الشحوب. همس:

ـ بالطبع!

طأطأ الداهية أرضاً. انتابته رعشة قبل أن ينطق:

ـ مولاي يعاني من داء. . .

ابتلع ريقه بعسر قبل أن يضيف:

ـ يعاني من تورّم الجلد!

هيمن سكون مزموم. هيمن السكون زمناً طويلاً قبل أن يستنكر المريض:

ـ هل أنت على يقين؟

أجاب الداهية وهو يتجنّبه بعينيه:

ـ كلّ اليقين!

عاد السكون يستولي على المكان. قال المريض:

ـ ماذا يعني أن يصاب الإنسان بتورّم الجلد في عرف دهاة الأسقام؟

تشبّث الداهية بالصمت. قال المريض بتسليم من صدر في حقّه حكم القدر:

ـ إنّه يعني الموت، أليس كذلك؟

لم يجب الداهية، فتساءل المريض:

ـ هل الخلعة هي السبب؟

اختلس إليه الداهية نظرة. أجابه بهزّة من رأسه إيجاباً.

ساد السكون من جديد إلى أن قال المريض:

ـ البليّة ليست في أن نموت، البليّة في ألاّ نفعل شيئاً نحيا به بعد أن نموت!

16 ـ الحقيقة

أقبلت الأَمَة لتستبدل له لباسه كما اعتادت أن تفعل كل يوم. استسلم ليديها. بدأت في تجريد الثوب من الثوب. تجريد ثوبٍ فضفاض من قشرة أخرى شبيهة بلحاء الشجر خدعوه فقالوا أن اسمها خلعة. وبرغم تيبّسها وتشقّقها وتقشّرها إلاّ أنها مضت تفرز سائلاً لزجاً ليس بقيحٍ ولا بدمٍ ولا بصديد. رطوبة شحيحة، ولكنها تفترس أثوابه الخارجية بالنّهم ذاته الذي تفترس به لحمه. غارت في جلدة البدن عميقاً، ثم أنبتت عروقاً شرسة مضت تسري في اللحم لتمتص منه الدّم وتأكل اللحم. كان يستشعر دبيب هذه الدودة الشرهة في حكّة لجوجة، ولكنه لم يحسب لها الحساب أبداً. لم يحسب لها الحساب إلى أن جاء ذلك اليوم الذي صرعته فيه النوبة. لا ينكر إحساساً كان ينتابه بالدوار، ولكنه كان إحساساً عابراً. لا ينكر أيضاً الضيق في التنفس، ولكن غزواته كانت طارئة ولم يحسب يوماً أنها يمكن أن تتطوّر فتكتم أنفاسه كما حدث بعد النوبة.

في الباب تبدّى الحاجب. في عينيه قرأ رسالة سوء. أومأ له فتكلّم:

ـ أخشى ألاّ يستطيع داهية البنيان المثول بين يدي مولاي!

تبادل اللئيم مع الأمَة نظرة ثم طأطأ. سأله:

ـ هل تستطيع أن تخبرني عن السبب؟

شيّع إليه نظرة ماكرة. قال:

ـ الحصار يا مولاي!

أزاح يد المرأة جانباً. سأل بدهشة:

ـ الحصار؟

ـ بلى يا مولاي. صاحب «قدموس» استطاع أن يقنع أشياخ الصحراء بغزو الواحة فأمدّوه بالفرسان الذين زحف بعونهم على الأسوار!

غزا وجنتيه شحوب. تمتم ببعض اللعنات، ولكن الحاجب لم يرحمه:

ـ هذا ليس كل شيء يا مولانا.

ـ وهل في جعبتك بليّة أسوأ من هذه البليّة؟

اختلس إليه الحاجب نظرة تنطق مكراً. أضاف:

ـ انقسم الأهالي شطرين: شطر فرّ من الواحة، وشطر توعّد بالاستسلام للعدوّ!

غمغم في وجه الحاجب:

ـ عليك وعليهم اللعنة!

ثم أضاف كأنه يحدّث نفسه:

ـ لا أعرف لماذا يحشد صاحب «قدموس» ضدّي رجال القبائل ليغزو بهؤلاء الأوغاد دياري!

حدجه الحاجب خلسةً. قال:

ـ صاحب «قدموس» قاد ضدّنا حملة تدّعي انتهاكنا لوصايا الناموس قبل أن يشنّ علينا حملته بالسيوف.

ـ عن أي انتهاك لوصايا الناموس يمكنه أن يتحدّث؟

رمقه الحاجب بنظرة ذات معنى. قال:

ـ المكوس على الماء استهانة بوصايا الناموس في ظنّه.

سكت. احتقنت وجنتاه بسيماء غضبة مكتومة. أغمض عينيه ففزّ من الرموش بلل. تمتم لنفسه:

ـ ألبّتُ ضدّي الأهالي بهذه المكوس الملعونة، ثم أيقظت العداوات في نفوس القبائل وفي نفوس أهل الجوار دون أن أجني من وراء ذلك حجابي الموعود. اللعنة على داهية البنيان. إنّي أكاد أصدّق أن ذلك الوغد ما هو إلاّ لئيم الأجيال «وانتهيط» أقبل علينا في ذلك اليوم المشئوم متنكّراً في أثواب الأغراب!

صرف الحاجب بإشارة من يده، ثم أومأ للجارية بالخروج أيضاً. عمّ في المكان سكون وتمادت في الأركان عتمة بعد أن خنق بأنفاسه ضياء السراج. من الشباك المغلق تسلّل بصيص ضوء

خبيث فأسدل الستور بإحكام. تمدّد في المخدع وتأمّل العتمة. تأمّل العتمة كما تأمّلها دائماً. ليس ذلك تأمّلاً للعتمة، ولكنه استسلام لسلطان العتمة. استمتاع في أحضان العتمة. وهو لم يعرف الأمان أبداً قبل أن يعرف الطريق إلى العتمة. الطريق إلى حجاب اسمه العتمة. ففي ربوعها فقط أفلح في أن يرى الناس كما يجب أن يراهم. أفلح في أن يرى الناس دون أن يفلح في رؤيته الناس. ولم يدرك إلاّ متأخّراً كم كان غبيّاً لأنه اختار الخطر حتّى لا يستطيع أن يتخيّل كيف حقّق النجاة من هذا الخطر يوم دبّ في ساحة هؤلاء الغيلان على قدمين. دبّ أعزل اليد، عاري القلب، مكشوف الظهر. دبّ بينهم مردّداً بعضلة اللسان أكبر أكذوبة يمكن لمخلوق أن يتشدّق بها في هذه الصحراء. تلك الأكذوبة اسمها الحقيقة تارةً، ثم السعادة تارة أخرى، ثم الخلاص تارات أخرى وأخرى. بالطبع لم يصدّقه أحد. بالطبع لم يصدّق إلاّ نفسه. ولهذا كان عدم تلقّيه طعنةً في الظهر أعجوبة الأعاجيب. ربّما لأن هؤلاء اللؤماء كانوا أذرى منه بحقيقة هذه الحقيقة التي روّج لها. كانوا أدرى لأنهم كانوا يعلمون أن من آلى على نفسه أن يردّد أكذوبة على أنّها حقيقة سوف يطعن نفسه بنفسه يوماً. سوف يشنق نفسه بنفسه عندما يكتشف أنّه صدّق. صدّق أن الخلعة هي خلعة حقّاً. صدّق أن الخلعة هي تفويض من جلالة الزعيم يهبه الحقّ في أن يمتلك الرقاب، ويتولّى أمر هو خرافة من البداية إلى النهاية، ويؤهّله ليصير لجلالة الزعيم على الصحراء

خليفةً. فيا للخرافة التي صدّقتها القبائل وآمنت بها الأجيال منذ أجيالٍ وأجيالٍ وأجيال. والغريب أن يقينه بهذه الخرافة لم يتزعزع إلاّ بعد عودة الرسول الثانية التي أنبأه فيها بسحب الثقة. ساعتها فقط استيقظ من الحلم. استيقظ من الكابوس ليحيا الشطر الثاني من الكابوس. ولكن العزاء هذه المرّة في أنّه لم يعد كابوس منام، ولكنه انقلب كابوس يقظة. وأن يحيا الإنسان الكابوس جاحظ العينين أهون من أن يحيا الكابوس مغمض العينين. وبرغم هذا اليقين إلاّ أن سحر الخلعة غلب كل يقظة. غلب كل يقين. لأنه منذ دخل في جوفها وهو يسير غائباً. يسير نائماً. يستطيع أن يميّز الأشياء، ولكنه لا يستطيع أن يبدّل الأشياء. كان ينزلق على سفح رمليّ مستسلماً، ينزلق منزوع الإرادة، نحو هاوية يدركها بالحدس الخفيّ، ولكنه لا يراها ولا يستطيع أن يتفاداها. لهذا السبب ربّما استنكر أن تنتزع هبة السحر من ظهره قبل الأوان. تُنتزع نزعاً لأنها في يقينه لم تعد من حقّ أحد سواه. لأنها في يقينه صارت جزءاً منه وهو جزء منها حتى لو لم تنبت في جلده كما حدث بالفعل فيما بعد. استنكر لأن استرجاعها من بين يديه هو استرجاع لقلبه من قفص صدره. لأن سحر هذه الخلعة في قدرتها على التحوّل من جبّة على البدن إلى جبّة في القلب. بل جبّة في لغز يسمّيه الكهنة روحاً. فكيف يستطيع المخلوق أن يتنازل عن لغز الروح ثمّ يدبّ بين الأنام متظاهراً بأنه ما زال على قيد الحياة؟

لقد استجاب البدن البليد لنداء الروح فلبّى البدن النداء برغم البلادة. ولهذا لم يستعجب أبداً أن يصحو من نومة القيلولة ليجد أن الخلعة قد وثّقت العهد مع البدن كما حدث في تلك الظهيرة. وثّقت بنود العهد لتصير حقيقة بعد أن كانت مجرّد خدعة، مجرّد أكذوبة لذرّ الرّماد في عيون البلهاء أمثاله. هذا العهد أعطاه الحقّ في أن يحوّل الأكذوبة إلى حقيقة. هذا العهد أعطاه الحقّ في أن ينكر سلطان الزعيم الذي انتوى أن يجعله دمية، بل شاء أن يجعله في الأفواه أضحوكة باسترداده لعطيّة لم يطلبها، بل لم يتوقّعها، ولكنها صارت من نصيبه ما أن تلقّاها. العهد الجليل أعطاه الحقّ أيضاً في أن ينكر الرسول ورسالة الرسول لأنه لن يستطيع أن يستبقي الوصيّة لنفسه إلى الأبد ما لم يزعزع يقين الدهماء بالرسول وبرسالة الرسول. وهو لن يستطيع الاستمرار في احتفاظه بالوصيّة ما لم يطهّر الواحة من خصوم السوء الذين يتستّرون بطلب حقيقة يدرون جيّداً حقيقتها، في حين يخفون ظمأهم المميت للاستيلاء على اللقية، واستغلالها لتنفيذ نوايا شرّيرة لو أدرك الغوغاء البلهاء حقيقتها لقطعوا دابرهم عن آخرهم، ولطافوا به أزقّة الواحة وشوارعها محمولاً على المناكب. ولكن العجز في أن يكشف للناس ما يوسوس في صدور هؤلاء من كيد هو ما دفعه لإخراجهم إلى المنافي حقناً لدماء الأوباش، ومنعاً لبلبلة الناس.

ولكن هل يستطيع أن يستردّ كبرياءه بعد أن استردّ الوصيّة،

فيثأر من الذلّ الذي ذاقه على أيدي الناس يوماً دون أن يحاكي الزعيم فيستنزل على بدنه ستور الاحتجاب؟

بلى. حيلة الحجاب كانت انتقاماً. كانت استرداداً للاستكبار الضائع. كانت ردّاً للاعتبار أمام نفسه قبل أن تكون ردّاً للاعتبار أمام الأغيار. فهل زلّ مرّة أخرى بحلفه الجنوني مع مريد الاغتراب؟ يعترف أن حدسه لم يخنه يوم اشترط هذا الداهية تكبيل المياه بالمكوس للفوز بالمال اللاّزم لتشييد الحجاب. ولكن هو من خان حدسه لا الحدس هو الذي خانه. تردّد طويلاً، ولكن الظمأ إلى الانتقام كان أقوى من خشية الناموس الذي حرّم منذ الأزل المساس بالماء. وربّما استطاع أن يفتدي هذه الخطيئة بقربانٍ ما لو فرض الرسوم على كنز الماء في زمنٍ آخر غير زمن الجدب. ولكن الخفاء شاء أن يتزامن هذا الإثم مع لعنة الجفاف فتضاعف ظمأ القبائل إلى الماء. بلغته أنباء عن نيّة أمم الصحراء المجاورة في غزو الواحة في الوقت نفسه الذي استنزل الخفاء على رأسه نكبة أخرى: تدهور العافية الذي أدّى إلى نوبة الإغماء. ثمّ.. ثمّ بشارة الورم التي جرى بها لسان داهية الأسقام في أوانٍ سابق لأوانها؛ لأن الموت مارد لم يحترم الأوان يوماً، لأنّه يأتي قبل أوانه دائماً حتّى لو تأخّر كثيراً برغم أنه يستطيع أن يتباهى بأنه أحد تلك القلّة القليلة التي لم تخف الموت لا لبطولة في النفس، ولكن لأنه الوحيد الذي مات يوماً ثم بُعث من الموت من جديد.

مات يوم تأبّط حبل المسد وذهب به إلى الحقل ليشنق نفسه في جذع النخلة فأنقذته النخلة بهبتها الذهبية. بهبتها الحقيقية التي فاقت كل هبات الصحراء لأنها أحيته بعد ممات. بلى. الشروع في الانتحار تجربة موت حتّى لو لم تنتهِ إلى موت. وإذا كان عليه أن يموت الآن فليس عليه أن يتحسّر لأنه الوحيد الذي استطاع أن يفوز بالحياة مرّتين. وإذا كان الناس سيتندّرون فيقولون أنه هلك بهبة أحبّها حبّاً جمّاً فلن يقولوا ذلك إلاّ لجهلهم بأن الإنسان لا يهلك (إن كان الموت هلاكاً حقّاً) إلاّ بما أحبّ لا بما كَرِه. ولكنهم لن ينكروا أبداً بطولته لأنه الوحيد الذي أفلح في تحويل خلعة كانت أكذوبةً إلى حقيقة يوم وهبها روحه برغم أنه دفع الثمن يوم افترست، إلى جانب الروح، جسده!

17 ـ النّاووس

في ذروة البلبلة أقبل عليه الحاجب بالبشارة:

ـ داهية البنيان ينتظر إذن مولاي بالدخول!

استشعر فرحاً طفولياً برغم الوهن وبرغم ضيق التنفّس. حاول أن ينهض، ولكنه انهار فاستعان بالوسائد وبمسند المخدع.

دخل الداهية بوميضٍ في المقلتين. انحنى أمام المخدع حتّى لامس طرف لثامه الكئيب سجّاد الدّار. خاطبه قائلاً:

ـ لقد طال انتظاري لك حتّى يئست منك ومن حجابك!

تربّع الداهية على السجّاد في مواجهته. تحوّل وميض الغموض في مقلتيه بسمةً. قال:

ـ البشارة يا مولاي تفتدي طول الانتظار!

حلّ في عيني المريض ظلّ بريق. ولكنه انطفأ فجأة قبل أن يقول:

ـ عويل الواعية كاد يسبق نبأ البشارة!

تطلّع إليه الداهية بفضول. قال:

ـ يبدو مولانا هزيلاً حقّاً إذا قورن بآخر لقاء بيننا، ولكن يبوسة الجسد دليل نبل قبل أن يكون بليّة تستدعي عويل الواعية!

ابتسم آساناي بحزن. قال:

ـ لستَ في حاجة لأن تشدّ أزري بالعبارة، ولكنّك تستطيع أن تجد لي الترياق في البشارة!

فرّك الداهية يديه في محاولة للتحرّر من استنفار المهاجر الذي قطع في سفره مسافات طويلة. قال:

ـ لم يعقني عن الوفاء بالوعد يا مولاي استكمال الحجاب، ولا بلبلة الحرب كما قد يظنّ مولاي، ولكن السرّ في السرداب!

ـ السرداب؟

ـ الأعسر من تشييد الأثر هو تضييع الأثر يا مولاي!

ـ الحقّ أنّي لا أفهم.

سكت الداهية. زفر بسخاء قبل أن يوضح:

ـ ألم نتفق مرّة بأن الخلود لا يتخفّى في ما عرفنا، ولكن الخلود يتخفّى في ما لم نعرف؟

ـ أذكر أننا تحدّثنا عن شيء من هذا القبيل يوم أشبعنا سيرة الزعيم جدلاً!

ـ لهذا السبب لم أستبسل في إتقان الحجاب بقدر استبسالي في إتقان إخفاء السبيل إلى الحجاب!

تطلّع آساناي إلى جليسه حائراً. استفهم بعينيه إعياءاً. أضاف الداهية:

- ما لا أثر له لا وجود له، يقول ناموس الجهالة، وأقول أن ما له وجود حقّاً هو ما لا أثر له!

وافقه آساناي بهزّة من رأسه. تمتم:

- أظنّ أن سيرة الزعيم أصدق دليل على ذلك.

أضاف الداهية:

- نحن لا نؤمن بما نرى، نحن نؤمن بما لا يُرَى!

أومأ آساناي مرّة أخرى مشجّعاً فمضى الداهية:

- لهذا السبب أنفقت من الجهد على الإخفاء ما لم أنفقه على البناء!

- يقال أن ضريح الرسول تعالى فوق الرابية أذرعاً أخرى بعد أن أمرت بتخريبه آخر مرّة، كأنّ الجنّ هم الذين يبنونه لا الإنس!

قال الداهية بلهجة ذات معنى:

- لا بقاء لما يعلو الرابية، البقاء لما تخفيه الرابية!

تساءل صاحب العلّة بدهشة:

- أي بقاء هذا الذي تخفيه الرابية؟

ولكن الداهية لم يجب. سأل بعد صمت قصير:

- هل يسمح حال مولاي بالخروج في رفقة؟

تردّد صاحب العلّة زمناً. عبّر عن شكوكه قائلاً:

ـ أخشى أني لن أستطيع الخروج في رفقة أحد دون عون العبيد!

تكلّم الداهية واثقاً:

ـ بل يستطيع مولاي أن يخرج بمعيّتي وحدي إذا شاء ألاّ يفسد العبيد في غمضة عين ما أقمناه في دهر!

أغمض صاحب العلّة عينيه إعياءاً، فأضاف الجليس:

ـ أحبّ أن أطمئن مولانا إلى أنه لن يحتاج إلى الخروج إلى أزقّة الملأ إذا رأى أن أوان الخروج قد حان.

استفهم آساناي:

ـ كيف لا أخرج إلى أزقّة الملأ إذا كنتَ تريدني أن أخرج بمعيّتك إلى الحجاب!

أجاب الداهية بلهجة مكر:

ـ لأن مولاي لن يخرج من باب داره في طريقه إلى حجابه!

ـ لن أخرج من باب داري؟

ساعتها زحف الداهية زحف الحيّة حتّى جاور المخدع. مدّ رقبته إلى أعلى حتّى أدرك بفمه أذن آساناي. وشوش في أذنه همساً:

ـ لأن فم السرداب يقع أسفل هذا البنيان!

انتفض صاحب العلّة وتراجع برأسه إلى الوراء. هتف:

ـ حقّاً؟

ولكن مريد الاغتراب أومأ له بكتمان السرّ بإشارة من سبّابته.

ساعده في ارتداء أثوابه. بعد لحظات كان يتسلّل به عبر الديار نزولاً إلى الأسفل خفيةً عن الخدم إلى أن انتهى البنيان إلى الحضيض. هناك انحنى الداهية ليزحزح لوحاً حجرياً مخفيّاً تحت طبقة طينية تعلوها بعض النّبوت اليابسة. في الهاوية تبدّى بصيص لنور ضعيف، ولكنه كان كافياً للاهتداء إلى الطريق. نزل به بعد أن أنزل وراءه اللوح الحجري الخفيّ. تلوّت بهما الهاوية مسافة قصيرة ليجد صاحب العلّة نفسه يسير في دهليزٍ ضيّق تضيئه مشاعل من الجانبين في مسافات متباعدة جدّاً. تباعد المسافات جعلهما يتخبّطان في عتمة حقيقية كلّما اجتازا في مسيرتهما مشعلاً وسارا مسافة أخرى ليدركا المشعل التالي. في جدران الدهليز نتأت صخور، وفي مواقع أخرى نزّ الماء أيضاً. لم يحتمل صاحب العلّة طغيان الرطوبة فانتابته نوبة سعال. ترنّح فأسنده الداهية. اشتكى وهو يستميت لالتقاط نفحة هواء:

ـ الهواء!

هوّن عليه الداهية:

ـ تجلّد يا مولاي فلم يتبقَّ من المسافة إلاّ الجزء الأقل.

ولكن آساناي اكتشف أن هذا القول لم يكن إلاّ شدّاً للأزر،

لأن المسافة تمدّدت بلا نهاية فوقع في الغيبوبة مرّتين، فاضطرّ الداهية أن يحمله على ظهره كأنه كوم بائس من قشّ!

عندما أدرك به الحجاب أخيراً كان هذا المخلوق الهشّ غائباً عن الدنيا، يتنفّس بعسر شديد، غزت سيماء الشحوب وجهه كلّه، يحشرج ويشهق كأنه يحتضر.

أجلسه الداهية في ركنٍ تتلألأ فيه الأضواء من مشاعل سخيّة معلّقة على جدرانٍ صقيلة. استخرج من جيبه مسحوقاً مخفيّاً في صرة جلد. تناول من المسحوق حفنة وضعها في أنف المريض. ارتجّ بدن آساناي بعطسة عنيفة فانتظمت في صدره الأنفاس. بعد لحظات فتح عينيه فأبصر الأنوار. أعمت الأنوار بصراً أَلِفَ الظلمات عهداً طويلاً فأغمض عينيه. سكن الداهية إلى جواره إلى أن استعاد قدرته على الرؤية. أشار إلى قلب المكان قائلاً:

ـ الآن يستطيع مولاي أن يستمتع بالأعجوبة التي لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر يوماً بقلب بشر!

نظر آساناي يومها فأبصر الأعجوبة المنتصبة في قلب دارٍ واسعة، حسنة الإضاءة، منحوتة الجدران بتمائم مستعارة من ناموس القوم الضائع، محفورة برموز الأبجدية القديمة. أمّا النصب الذي أطلق عليه الداهية اسم الأعجوبة فجرمٌ مستطيل، يتوسّط الدار، منحوت من صلدٍ صقيل أحمر اللون لم يحدث له

أن شاهد له مثيلاً في دنيا الصحراء كلّها. الصلد محفور بالوصايا المستعارة من الناموس المفقود أيضاً مزبورة في صفوفٍ مستقيمةٍ شهيّة للعين تطوّق الجرم كلّه.

قال الداهية:

ـ هذا هو الحجاب الموعود يا مولاي!

تمتم آساناي بذهول:

ـ الحجاب!

كان الشقيّ يرتجف بشدّة ربّما لهفةً للحجاب، وربّما بوطأة الحمّى. توسّل:

ـ أحملني إليه. أريد أن أتحسّسه بيدي هذه!

ولكن الداهية لم يحمله إلى الحجاب، بل ذهب إلى الجرم بخطوات واثقة. زحزح الغطاء عن الكنز فانكشف الجوف. عاد إلى صاحب العلّة. حمله بين يديه كأنه يحمل طفلاً، كأنه يحمل قشّاً. حمله ليضعه في جوف الجرم الخفيّ، ثمّ وقف فوقه ليقول:

ـ هذه هي أعجوبة الأجيال التي تسمّيها حجاباً، ويسمّيها الناموس ناووساً!

استنشق آساناي الهواء بعسر. ردّد غائباً:

ـ الناووس؟!

قال الداهية:

- في هذا الجوف سوف تخلعك الخلعة عن بدنها، لأنك أبيت أن تخلعها عن بدنك!

تلاحقت الأنفاس في صدر صاحب العلّة. جحظت مقلتاه. حشرج:

- ماذا تقول؟

انحنى الداهية نحوه في فم الهاوية. قال بصوت آخر:

- أقول ما يجب أن تسمعه منذ زمن بعيد من صوت خنقته في قلبك تلبيةً لنداء استكبارك!

جاهد آساناي في جوف الناووس لينهض مستعيناً بمرفقيه، ولكن قواه خذلته فانهار إلى الأسفل. تساءل كأنه يستغيث:

- من أنت؟

أطلق الداهية ضحكة مجلجلة رددتها أركان البنيان. أجاب:

- ومن تظنّني أكون أيها الأبله آساناي غير صاحب الخلعة التي تأكل الآن جسدك كما تأكل الأَرَضة تراب الأرض؟

حشرج آساناي مأخوذاً:

- صاحب الخلعة؟!

- صاحب الخلعة بالطبع، أم أنّك صدّقتَ أن الزعيم لا يجد ما

يفعله في عزلته الخالدة سوى أن يتسلّى بتلفيق جلود الخلق ليخلعها على أبدان البلهاء أمثالك؟

جعجع بضحكة أخرى ثم أضاف:

ـ هل تدري لماذا لا يستطيع الزعيم أن يتلهّى بمثل هذه الدّمى؟

تحوّلت الأنفاس في صدر صاحب الناووس فحيحاً منكراً. حاول أن يتكلّم، ولكن الأنفاس خذلته، فتكلّم الداهية نيابةً عنه:

ـ لأن الخلعة خطيئة جسيمة، وخلع الخطايا على الرقاب رسالتي أنا في هذه الصحراء وليس رسالة الزعيم!

استبسل المخلوق المسجّى في جوف الناووس. أطلّ برأسه من الجوف جاحظ العينين. شهق بعمق قبل أن يفلح في النطق:

ـ ولكن الرسول. . أيعقل أن يكذب الرسول؟

جعجع الداهية بضحكة كريهة أخرى. انحنى نحو الخصم حتى كاد أن ينطحه برأسه. حشرج في وجهه:

ـ ألم يعترف الرسول يوم المساءلة بأنه لم يرَ الزعيم إلاّ وحياً؟

غمغم آساناي:

ـ ماذا تريد. .

ـ أريد أن أقول أن الإيحاء لغة لم تعجزني يوماً! ولهذا السبب حاولت أن أنقذه من قصاصك صادقاً يوم المساءلة بحجبي الثقة عنك برغم أنه أنكرني وألصق بي تهمة أنا منها بريء!

دار حول الناووس خطوات. أطلّ على الخصم من جانب الناووس الآخر. أضاف:

ـ أعرف أنّك تتلهّف لتسألني لماذا قررت أن أقتحم الواحة لأتولّى الأمر بنفسي. حسناً! سأشبع فضولك هذا أيضاً. فما يروق لي عادةً هو المشاهدة عن بُعْد، ولا أتدخّل بنفسي إلاّ إذا اكتشفت خللاً. وهذا ما فعلته هذه المرّة أيضاً. لقد رأيت تدبيرك للمكيدة ضدّ زبانيتي الأشقياء لتنفرد برسولي المسكين غدراً. ساعتها لم أجد مفرّاً من تولّي الأمر بنفسي تلبيةً لحكمة الأجيال القائلة بأننا يجب أن نذهب بأنفسنا لقضاء حاجتنا إذا شئنا أن تنقضي لنا الحاجة، أمّا إذا شئنا ألاّ تنقضي لنا الحاجة فليس لنا إلاّ أن نبعث بمن ينوب عنّا في قضائها. هيء ـ هيء ـ هيء..

ابتلع ضحكته المكتومة. خطا حول الناموس خطوات أخرى. أطلّ على الخصم من زاوية أخرى. انحنى في جوف الهاوية حتى كاد أن يصدم آساناي الشقي بنطحة من رأسه. حشرج في وجهه:

ـ لقد أردت أن ألقنك درساً في السلطان، ولكنك خذلتني كما

خذلني قبلك الكثيرون، لأنكم ملّة لا تدرك ما يجب أن يُدرك، ولا تقرأ العلامة التي يجب أن تقرأ، ولكنكم لا تدركون إلاّ ما تهوون، ولا تقرأون إلاّ ما تستمرئون، فلا ترون أن استبدال سلطان الزعيم بسلطان مخلوق بائس اسمه الإنسان ليس خطيئة فحسب كما تتشدّقون، ولكنه خيانة! بلى! خيانة منكرة للناموس، وخيانة أبشع لسلطان الزعيم. فهل بلّغت؟

تململ صاحب الناووس في مثواه الرهيب. بذل جهداً بطولياً كي يعلن:

ـ أنت «وانتهيط». أنت لن تكون إلاّ لئيم الأجيال «وانتهيط». .

قاطعه الداهية بكلمته الأخيرة:

ـ بل أنا حكيم الأجيال «وانتهيط» الذي يفعل شرّاً دوماً لأنه يدري أنه سيتحول خيراً دوماً، ولكنه لا يفعل الخير أبداً لئلاّ يتحوّل شرّاً!

حشرج صاحب الناووس وهو يعاند النزع الأخير، ثم شهق ليلفظ أنفاسه الأخيرة. وقف الداهية فوق رأسه لحظات، ثم سحب عليه غطاء الناووس المنحوت من صلدٍ مصقولٍ وموسوم بطلاسم الأبجدية القديمة.

استدار الداهية وطاف جدران المكان. انهمك في إطفاء المشاعل السخيّة التي أحالت الظلمة نهاراً، فسادت ظلمات

يخترقها بصيص أنوار تنبعث من مشاعل السرداب. سار ليطفىء كل مشعل في سبيله عبر الدهليز المحفور في جوف رابيةٍ متوّجة بضريحٍ صار مزاراً، ثم تحوّل مع توالي الأيام معبداً مجسّداً في بنيانٍ مهيب.

غولديفيل (الألب السويسري)
نوفمبر 2007م

مؤلفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماويّة (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، 1999م.

32 ـ سأسرُ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أرباب الأوطان 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أرباب الأوطان 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52 ـ مراثي أوليس (رواية 2004م).

53 ـ صحف إبراهيم (متون 2005م).

54 ـ المحدود واللامحدود (متون 2002م).

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م .

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأمّلَتْ الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، (2006م).

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكانٍ نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2007م.

مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

65 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

66 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

67 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

الفهرس

T H E T U M O R

رواية
NOVEL

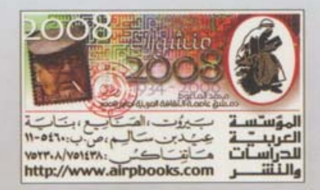




الورم

هذه هي القطعة السريّة المخبّأة في لفافة الجلد الّتي يسعى الرسول لسلخ جلده ليستردّها منه كما سلخت جلود سلف كثيرين لتزداد العطيّة وزنًا والخلعة سمكًا . بلى . سيسلخ زبانية الرسول جلده كما تُسلخ الشاة بعد ذبحها مع فارق غريب هو أنّ الشاة لا تُسلخ إلاّ بعد الذبح ، أمّا هو فعليه أن يحتمل سلخًا بلا ذبح ! بلى ، بلى . الرسول سيعود خائبًا ، ولن يجد حرجًا في أن يجاهر برفض الالتماس . إنّه يعرف ذلك سلفًا حتّى إنّه لم يستمهله القصاص إلاّ يأسًا ، وربّما لكسب وقتٍ مكرّسٍ للبحث عن مخرج من المأزق ، لأنّه لا ينوي أن يذهب طوعًا ليقدّم رقبته كالخروف للجلاّد كي يجرّ عليها نصله ، بل كان الأمر سيكون أهون لو اقتضى الأمر تقديم الرقبة ، لأنّ عليه أن يخضع لقصاص يتوجّب عليه بمقتضاه أن يرضى باستقطاع جلده مع استبقاء الرقبة عكس الشاة الّتي لا يهمّها أن تُسلخ شريطة أن تُذبح قبل أن تُسلخ .

من الرواية




ISBN 978-9953-36-216-5

